النسك

الحج والعمرة وأعمالهما

على المذاهب الأربعة

وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم

تأليف

محمد محيي الدين عبد الحميد

أستاذ فى كلية أصول الدين

بالجامع الأزهر

النسك

الحج والعمرة وأعمالهما

على المذاهب الأربعة

وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم

تأليف

محمد محيي الدين عبد الحميد

أستاذ فى كلية أصول الدين

بالجامع الأزهر

الناشر

المكتبة العلمية بمكة المشرفة

لصاحبها عبد الفتاح فدا وأولاده

بباب السلام

مطبعة السعادة بمصر

١٩٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا الضَّالِّينَ .

والحمدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .

والحمدُ لله كِفاءَ نعمته ، والشكر له على ما أولانا من فَضْله ، لا نُحصِي ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه

والصلاةُ والسلامُ على مُصْطَفَاهُ من بَرِيَّتِهِ ، سيدنا محمد بن عبد الله خيرِ خلقه وأفضل من دعا إلى الله على بصيرةٍ ، وعلى آله وصحبه وعِتْرَتِهِ .

وبعد ، فهذا كتابٌ وَصَفْتُ فيه المَشَاهِدَ المُقَدَّسة التي تَهْوِى إليها أفئدةُ المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وصْفاً يُجَلِّيها لأعْيُنِ قارئيه ، وذكرتُ مع كل مشهدٍ منها لمحةً تاريخية تَقُصُّ ما مرَّ به من عمارةٍ وتجديد ، وما طرأ عليه من تغير ، ثم بينت ما يُحيط بكل مشهد أو يدنو منه من آثارٍ لها فى القلوب والمشاعر آثار تَهْتز عند ذكراها ، ثم قَفَّيت على ذلك كله ببيان الحج والعمرة وأعمالهما على المذاهب الأربعة التي يَعْبُدُ المسلمون على مناهجها خالِقَهُمْ ، وبالغتُ فى تيسير العبارة وضَبْطِهَا ؛ لتكون أقربَ إلى الفهم .

وأنا أرجو الله تعالى أن يُجْزِل لى المَثُوبَةَ على ذلك؛ فإنه وحده الذى يجزى العاملين .

كما أرجو مَنِ اطلع عليه أن يلتمس لى العذر إن وَجَدَ ما لا يخلو منه عملُ إنسانٍ من هفوة زلَّ بها القلم، أو زلة غَفَل عنها إدراكى، فكل كتابٍ — غيرَ كتابِ الله تعالى — حَرَى بأن يقع فيه الاختلافُ والاضطرابُ؛ ليكون ذلك أحَدَ الدلائل على إعجاز كتاب الله تعالى وبلوغه الغايةَ التى ليس فوقها غاية من الإحكام والإبانة . كما أرجو كل أخٍ من إخوانى المؤمنين بالله اطَّلع عليه فأفاد منه أن يَدْعُوَلى ولِوَالِدَىَّ بظَهْر الغَيْبِ دعوةً أنتفع بها يومَ تجد كل نفس ما عملت من خيرٍ مُحْضَرًا، وما عملَتْ من سُوءٍ تَوَدُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

اللهمَّ إنَّ بك اعتصامى، وإليك التجائى، لا تَكِلْنِى إلى نفسى يا أرحم الراحمين .

القاهرة { ٢٠ من شوال ١٣٧٠
٢٤ من يولية ١٩٥١ }

كتبه المفتقر إلى عفو الله

محمد محيى الدين عبد الحميد

حكمة مشروعية الحج

قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » .

اعلم يا أخى ـ وفقنى الله تعالى وإياك إلى طاعته ، وألزمنا طريق الحق والطاعة ، وجنبنا طريق الضلال والمعصية ! ـ أن الله ـ جلت قدرته وتعالت كلمته ! ـ لم يشرع لنا من الدين إلا ما فيه مصلحة عائدة إلينا ، وأنه سبحانه غنى عن العالمين ، لا تنفعه طاعة المطيع ، ولا تضره معصية العاصى ، (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) .

ثم اعلم أن الحكمة العامّة لشرع هذه التكاليف تربيةُ الإنسان تربيةً صالحة ، وتقويمُ نفسه تقويماً يحملها على حب الخير وأهله ، والعمل به ، والدعوة إليه ، ثم تكوينُ الإنسان تكوينا يجعله عضواً نافعاً فى الجماعة الإنسانية : عاملا لا تُكَلة ، صالحا لا فاسدا ، قادرا لا عاجزا ، مأمونَ

المَحْضَرِ والمغيب لا بَهَّاتاً ولا مُنَافقاً، يعرف الحق ويعمل به، ولا يحيدُ عنه لهوًى أو رغبةٍ في عاجلٍ أو تقليدٍ لمن أكبرتْهُمُ الدنيا أو عَظَّمهم الناسُ زَيفًا وباطِلاً.

ولكل عمل من أعمال الإسلام التي شرعها الله ورسوله سببٌ متصل بهذه التربية، والغرضُ الآن بيانُ السبب المتصل بها من الحج إلى بيت الله العتيق، فنقول:

تذكر أولا أن هذا البيت الحرامَ قد حج إليه الأنبياء والمرسَلُونَ من قبل سيدنا ومولانا رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وتذكر أنهم كلهم عظموه وقَدَّسوه ومجدوه وطافوا به، فإذا تذكرت ذلك وألْقَيْتَ إليه بالَكَ، فتصَوَّر أنك تؤدى ما أدَّوْه، وتفعل ما فَعَلُوه، وهم قومٌ أنْعَمَ الله تعالى عليهم بأجلِّ النعم، نعمةِ الهداية والدَّعْوَة إلى الله والصَّبْر على الأذى واحتمال المشاقِّ في سبيل الله، فإذا تصورت ذلك فأنت خليقٌ بأن تَتَشَبَّهَ بهم في هذه الصفات وأشباهها كما تتشبه بهم في هذه الأعمال.

ثم تذكر أن لله تعالى ملائكةً يَطُوفون حَوْل عرشه، وأن هؤلاء الملائكة لا يَعْصُونَ الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون، وتذكر – مع ذلك – أن الله تعالى أمر آدم أبا البشر حين أهبطه إلى الأرض أن يبنى البيت الحرام ليطوف به، وليذكر الله عنده على نحو ماتصنع الملائكة حول عرش ربِّهم، فإذا تذكرت ذلك فتصوَّر أن المقصود من الطواف حول هذا

البيت هو التشبُّه بالملائكة ، وتصور أن هؤلاء الملائكة كرامٌ بَرَرَة أخيار ، لا يَقْتَرِفُونَ معصية ، ولا يجترحون سيئة ، فإذا أنت تصورت ذلك وألقيت بالك إليه فاعلم أن عليك أن تتشبه بالملائكة الأطهار الأبرار الأخيار في إقبالهم على طاعة الله وابتعادهم عن معصيته .

ثم تذكر أنك لا تَدْنُو من هذا البيت حَاجًّا أو مُعْتَمِرًا إلا وقد خلعت ثيابك ، وتجردت عن كل ماهو من زينة الدنيا وزُخْرُفها ، وأنك مكلف أن تظهر في أعمالك كلها بمظهر الخشوع والضَّرَاعة والمسكنة والحاجة إلى خالقك ورازقك ، وأن ذلك من وسائل قبول عملك الذي جَشَّمت نفسَكَ السفر لأدائه ، فإذا تذكرت ذلك وألقيت بالك إليه فاعلم أن هذا من الله تعالى إيذانٌ بأنه لا يرضى عن التعاظم والكبرياء والمَخِيلة ، ثم هو منه سبحانه إيذانٌ بأنه لا ينظر إلى صُوَرِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم

وتذكر أن كل حَاجٍّ يتجرد من ثيابه وزينته ، ويُكَلَّفُ أعمالاً أغلبها حركة وسير على الأقدام ، فإذا تذكرت ذلك فتصوَّر أن الرُّجُولة لا تتمُّ إلا باصطناع الزهد في لذائذ الدنيا وشَهَوَاتها ، وبالانخلاع من كل عمل يَدْعُو إلى الركود أو يُعِينُ عليه ، وأن الدَّعَةَ والراحة والانغماس في الملاذِّ — ولو كانت مُبَاحة — يُورِثُ ضَعْفاً ، وقد يَجُرُّ إلى خُنُوثةٍ ، فإذا تصورت ذلك وألقيت إليه بالك فاعلم أن الله تعالى — حين فرض على هذه الأمة الحجَّ وجعل من شعائرِه هذا التجرد — إنما أراد أن يجعل من أفراد المسلمين

رجالا أشِدَّاء أقوياء ، لاتبطرهم النعمة ، ولا يُطْغِيهم ما عسى أن يناله أحدُهم من سَعَةٍ ، وأنهم يجب أن يُدَرِبوا أنفسهم على الرجولة لينتفعوا بها إذا جَدَّ الجِدُّ ، وعلى الاخشيشان لأن النعمة والدَّعة لا تَدُومَان .

وتذكر أنك تَقْدِم على هذا البيت الحرام وقد لَبِسْتَ ثوباً استويت فى لبسه أنت وأضعفُ خَلْقِ الله تعالى وأفقرهم وأشدهم سلطانا وأكثرهم مالاً ، فإذا تذكرت ذلك وألقيت بالك إليه فاعلم أن هذا إيذان من الله تعالى بأن الخلق كلهم سواء لديه ، لا فَضْلَ لعربى على عجمى ، ولا لذى جاه وسلطان على مَنْ لاجاه له ولا سلطان ، ولا لبائس فقيرٍ على مَنْ جَمَع مالاً وعَدَّده ، وإنما يتمايزون عنده بالتقوى والعمل الصالح ، ورُبَّ أشْعَثَ أغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ .

وتذكر أن فى الحج عَمَلاً يُؤَدَّى فى وقت مُعَين وفى مكان معين ، ولايجوز أن يؤدَّى قبله ولا أن يؤدى بعده ، وأن ذلك يقتضى الحجَّاج جميعاً أن يكونوا فى هـذا المـكان فى الوقت المحدود له شرعاً ، فإذا تذكرت ذلك فتصور أن فى ذلك إيذاناً من الله تعالى لأهل هذه الملة بأن يجتمع منهم أولو النهى والأُحلام، فى صعيد واحدٍ ؛ ليتدارسُوا أحوالهم، ويتعارفوا ماتمس إليه حاجتهم أو حاجة جماعة منهم ، فإذا أنت تصورت ذلك وألقيت بالك إليه فاعلم أن الله تعالى — حين شرع الحج — قد دعا أهل الإيمان به إلى الأُلْفَةِ، واجتماع الكلمة، والتَّوَاصِي بالحق، والتَّوَاصِي بالصبر، ثم إلى عَقْد ما يسمى

فى عرف هذا العَصْرِ بالمؤتمرات لبَحْث الشؤون العامة للمسلمين وللإسلام ، واعلم أن المسلمين قد عرفوا ذلك من حِكَم دينهم قبل أن تعرفه الأممُ التى تَدَّعِي المدنيةَ اليومَ بأجيال وأجيال ، وقد كان كثير من السلف الصالح حين يذهب إلى الحج يَعْرِض على مَنْ يَلْقَاهُ من أهل الذكر من المسلمين مايعترضه من مشاكل عسى أن يجد عند أحدهم حَلاًّ لها . وما هـذه الرابطة العربية التى يدعو لها أهلُ الحل والعقد من رجالات الدُّوَل العربية بشىء إلا شيئاً لايعبأ به إذا قيست بهذا المؤتمر الذى يحضره قومٌ أخلصوا نياتهم لله، وتجرَّدوا عن كل ما هو من زينة الدنيا ومبعث الخيلاء فيها ، وانصرفوا إلى حمد الله وتسبيحه وتكبيره والضَّرَاعة إليه؛ فكانت لهم من ذلك كله رُوحانية وقوةُ يَقينٍ وصدقُ عزيمةٍ ، وتلك خِلاَلٌ تُعْجِزُ أهلَ الدنيا جميعاً

ولعمر الحق لو أن المسلمين فَطِنُوا لما فى عباداتهم من حِكَمٍ وحاوَلوا الإفادة منها لكانت لهم العزَّةُ والسلطانُ ، ولكنهم ـ والله تعالى يهديهم ويوفقهم ! ـ انصرفوا عن لب اللُّبَاب ، وتمَسَّكوا بظَوَاهِرِ الأمور ، وتعلَّقُوا بواهى الأسباب ، فتَدَاعَتْ الأممُ عليهم كما يتداعى الأَكَلَة على القِصَاع ، بَصَّر الله ـ سبحانه ! ـ المسلمين بدينهم ، ونفعهم بآدابه العالية ، وجعل لهم منه ما جعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولصحابته الأخيار من الظهور على عَدُوِّهم ! آمين .

هذا بعضُ ما مَنَّ الله به علينا من فهمٍ لحكمة مشروعية هذه العبادة العظيمة الأجْرِ ، كتبتها حسبما أتيح لى ، وحكمتُهَا فوق ما تدركه العقول ، وتَصِلُ إلى كُنْهِهِ المدارك ، والله ــ سبحانه !ــ المسؤول أن ينفعنى و إخوانى المسلمين بهذا العمل ، إنه السميع المجيب ، آمين .

كتبه شديد الافتقار إلى عفو الله تعالى ومغفرته

محمد محيى الدين عبد الحميد

القسم الأول من الكتاب

فى وَصْفِ الْمَشَاهِدِ الْمُقَدَّسَةِ

مكة المكرمة

هى بَلَدُ الله الحرام ، ومنشأ إسماعيلَ أبى العرب المستعرِبة عليه الصلاة والسلام ، ومَوْلد خاتِمِ الأنبياء والمرسلين ومُرَبَّاه ، ومَهْبِط جبريل عليه بالوحى ، وفيها الكعبة المقدسة التى يتَوجَّه إليها المسلمون فى صَلَوَاتهم ، ويَشُدُّون الرحالَ إليها كل عام ليطَّوَّفوا بها ويغسلوا ذنوبهم ويعودوا إلى أهليهم وأوطانهم وقد خرجوا من هذه الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتُهُمْ ، وهى خير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى رسوله كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم ، عَزَّتْ على الجبابرة فى الجاهلية فلم تَدِن للملوك ولم يُؤَدِّ أهلُها إتاوة لأحدٍ ولم تخضع لسلطان أحدٍ من ملوك الأرض ، بل كان ملوكُ حِمْير وكِنْدة ولخم وغسَّان ورعاياهم يحجون إليها كما يحج سائر العرب ، يدينون لأهل مكة من قريش ، ولا يرون لأنفسهم فضلا عليهم ، وإنما هم أمامهم كغيرهم : يَرَوْن تعظيمَهم والاقتداء بهم مفروضا عليهم ، وشرفا عظيما لهم ، وكان لأهل مكة من المنزلة فى العرب وعُلُو المكانة ما كان من أثره أنهم يَغْزُون الناسَ ولا يغزوهم أحد ، ويَسْبُون ولا يَسْبِى نساءَهم أحد ، مَنْ نزل بهم أمِنَ ، وعاش فى خَيْرِ عيشٍ ، وعَزَّ جَانبُه .

وقد ذكر الله تعالى مَكَّةَ فى كتابه الكريم مرارا ، وبأسماء عديدة ، فالقرآن العظيم يسميها البلد ، والبَلَدَ الأمين فى غير آية منه ؛ فمن ذلك قولُ الله

تعالى:(والتين والزيتون وطورسنين وَهَذَا الْبَلَدِ الأمِينِ لقد خلقنا الإنسانَ فى أحسن تقويم) ومن ذلك قولُه تعالت كلمته : (لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حِلٌّ بهذا البلد) وهذا استجابة من الله تعالى لدعوة إبراهيم خليل الرحمن إذ قال : (وإذ قال إبراهيمُ ربِّ اجعل هذا بلدا آمناً ، وارْزُقْ أهلَه من الثمراتِ مَنْ آمن منهم باللهِ واليوم الآخر) وقال : (ربِّ اجعل هذا البلدَ آمنا ، واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أن نعبد الأصنام) وقد سمى سبحانه مكة أم القرى ، وذلك فى قوله جلت كلمته : (وهٰذا كتاب أنزلناه مُبَارَكٌ مُصَدِّق الذى بين يديه ، ولتنذر أمَّ القرى ومَنْ حَوْلَهَا ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يُحَافظون) وفى قوله تباركت أسماؤه : (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومَنْ حولها ، وتنذر يوم الجمع لا رَيْبَ فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السَّعير)

وقد سمى الله تعالى بيته الذى فى مكة : البيت الحرام ، والبيت المحرم ، والبيت العتيق ، وذلك فى قوله سبحانه : (جَعَلَ الله الكعبَةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناسِ) وفى قوله جل شأنه على لسان إبراهيم الخليل : (رَبَّنَا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) وفى قوله تباركت أسماؤه : (ثمَّ لْيَقْضُوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوَّفوا بالبيت العتيق)

وأضاف الله تعالى هذا البيت إلى نفسه تشريفا له وتعظيما لقدره ، وذلك فى قوله : (وعَهِدْنَا إلى إبراهيم وإسماعيل أنْ طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود)

ويُرْوَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى فتح مكة ، وقفَ على جَمْرة العَقَبة وقال : « واللهِ إنَّكِ لخيرُ أرضِ الله ، وإنك لأحبُّ أرضِ الله إلىَّ ، ولَوْ لَمْ أُخْرَجْ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ » ويروى عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم نظر إلى الكعبة فقال : «إن الله تعالى قد شَرَّفَكِ وكرمَكِ وحَرَّمَكِ ، والمؤمنُ أعظمُ حرمة عند الله منك »

وأول بيتٍ وضعَه الله تعالى لعباده هو البيت الحرامُ الذى جعله الله مَثَابة للناسِ وأمْنًا ، كما أخبر سبحانه عن ذلك بقوله (إن أوَّلَ بيتٍ وُضع للناسِ لَلَّذِى ببَكة ، مُبَارَكا وهُدًى للعالمين ، فيه آيات بينات : مقامُ إبراهيم ، ومَنْ دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومَنْ كَفَر فإن الله غنى عن العالمين) وهو أول المساجد الثلاثة التى أذِنَ النبى صلى الله عليه وسلم فى أن تُشَد إليها الرِحَالُ ، والصلاةُ فيه لا تعدلُها ألفُ صلاة فى غيره ، فقد رُوى أن رسول الله صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليه قال : « لا تشدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجدَ : المسجدِ الحرام ، ومسجدى هذا (أى مسجد المدينة المنورة) والمسجد الأقصى » وورد أنه عليه الصلاة والسلام قال : « صَلاةٌ فى مسجدى هذا خيرٌ من ألفِ صلاة إلا فى المسجد الحرام » ورُوى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فَضْلُ المسجدِ الحرام على مسجدى هذامائةُ صلاةٍ » ورَوَى ابنُ أبي مُلَيكة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف

صلاة فى غيره من المساجد ، إلا المسجد الحرام . وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من خمس وعشرين ألفَ صلاةٍ فيما سواه من المساجد »

ولعظم قدر الحرَم وجلال شأنه وسامى منزلته جعل الله تعالى الخطيئة فيه فوق كل خطيئة ، وتوَعَّد مرتكبها بالعذاب الأليم ، وذلك قوله سبحانه : (وَمَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم نُذِقْهُ من عذابٍ أليمٍ) ويُرْوَى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان يقول : لخطيئة أصيبُهَا بمكة أعزُّ على من سبعين خطيئةً أصيبها بِرُكْبَةَ (ورُكْبَة : سَهْل فسيحٌ بين مكة والطائف ، وقال قوم : هو وادٍ من أودية الطائف)

هذه مكة ، وهذا بيتُ الله فيها ، ما من مسلم يؤدِّى لربه ما وَجَب عليه إلا وهو يتوجَّه بوجهه وبقلبه إليهما فى كل يوم خَمْسَ مراتٍ : يكبر الله ، ويسأله الإعانة والتوفيق ، ويُسَبحه ، ويعظمه ، ويشهد أن لا إله إلا هو ، ويشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه ، ويسأل الله أن يصلى عليه وعلى آله كما صلى على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ؛ إنه حميد مجيد

هذه مكة ، وهذا بيت الله تعالى فيها ، إليهما تَهْفُو أفئدةُ المسلمين فى مشارق الأرض ومَغَاربها ، وإليهما تحنُّ نفوسهم وقلوبُهم ، وكل منهم يسأل ربه أن يوفقه إلى زيارتهما وشدِّ الرحَال إليهما ، وأن يُسْعِده برؤية مشاهدها ، وذلك بعضُ ما أجاب الله به دعاء خليله إبراهيم إذ يقول : (رَبَّنَا إنى أسكنْتُ من ذُرِّيَّتِى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا

ليقيموا الصلاة ، فاجْعَلْ أفئِدَةً من الناس تَهْوِى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)

هذه مكة وهذا بيت الله فيها : يأمَن مَنْ لجأ إليهما، فلا يُذْعَر، ولا يخاف، ولا يؤذَى ، حتى الصَّيْد ، وحتى مَنْ أحدث من الناس حَدَثاً فى خارج الحرم مِنْ قتل أو سرقة أو غيرهما لا يُقَامُ عليه حدُّ الله تعالى فيه ، ولكن على جماعة مَنْ فيها من المسلمين أن يمتنعوا من إيوائه ومن مبايعته ومجالسته حتى يُلْجِئوه إلى الخروج منه ، فإذا خرج أقيم عليه ما استوجبه من حكم الشرع ، وذلك بقوله تعالى : (وَمَنْ دَخَلَه كان آمِناً)

بناء بيت الله الحرام

(١) قال الله تعالى : (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

سورة الزمر — الآية ٧٥

(٢) وقال الله تعالى : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ، مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ : مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

سورة آل عمران — الآيتان ٩٦ ، ٩٧

(٣) وقال الله تعالى : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً ، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ، وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ

بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، قَالَ : وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

سورة البقرة — الآيات ١٢٥ ــ ١٢٨

(٤) وقال الله تعالى : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ، يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ عَلَى مَارَزَقَهُمْ من بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)

سورة الحج — الآيات ٢٦ ــ ٢٨

يرجع بناء الكعبة التي يقصدها المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها لأداء فريضة الحج وليطَّوَّفوا بها إلى زَمَنٍ بعيدٍ جدًّا مُتطاوِلٍ في الْقِدَم ؛

فهي مما بنته ملائكة الله تعالى من قبل أن يخلق الله آدم أبا البشر عليه السلام ، وكفى شَرَفاً لهذه البَنِيَّة أن يعهد الله جل جلالُه إلى ملائكته الكرام البَرَرَة أن يقيموا دَعَائمها .

رُوى عن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب — رضى الله تعالى عنهم ! — أنه قال : إنَّ أول ماخَلَقَ الله تعالى هذا البَيْتَ أن الله عز وجل قال للملائكة : (إنى جاعِلٌ فى الأرض خليفة) فقالت الملائكة : (أتجعل فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها و يَسْفِكُ الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟) فغَضِبَ الله عليهم حين قالوا ذلك ولم يُفَوضوا له ، فأعرض — سبحانه ! — عنهم ، فطافوا بعَرْش الله سَبْعاً كما يطوف الناسُ بالبيت الحرام ، وبَقُوا يسترضونه من غضبه ، ويقولون : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، ربَّنا معذِرَةً إليك ، نستغفرك ونتوب إليك ، فرضِيَ الله تعالى عنهم ، ثم أوحى إليهم أنِ ابْنُوا لى فى الأرض بيتاً يطوف به مِنْ عبادى مَنْ أغضَبُ عليه فأرضى عنه كما رضيت عنكم ، ففعلوا ما أمرهم الله تعالى به .

وإن الملائكة لتزور هذا البيت منذ ذلك الحين ، وإنها لتزورُه دائماً ، وإنها لتزدحم عليه ، وتطوف به ، وتصلى فيه ، رَوَى ابنُ عباس رضى الله تعالى عنهما أن جبريل مَلَكَ الوحى — عليه السلام ! — وقف بين يَدَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه عِصَابة حمراء قد علاها الغبارُ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا الغُبَار الذى أرى على عصابتك أيها الروحُ الأمين ؟

فقال : إنى زرتُ البيت ، فازدحمت الملائكة على الركن ، فهذا الغبار الذى تراه مما تثيره الملائكة بأجنحتها ، وروى عن عثمان بن يسار رضى الله تعالى عنه أنه قال : بَلَغَنِى — والله أعلم — أن الله تعالى إذا أراد أن يبعث مَلَكا من الملائكة لبعض أموره فى الأرض استأذنه ذلك المَلَكُ فى الطواف بالبيت ، فهَبَطَ المَلَكُ مُهِلاً ، ويُصَلِّى فى البيت ركعتين

ولما أهبط الله تعالى آدم أبا البشر — عليه السلام! — إلى الأرض أمره أن يبنى بيت الله ؛ ليطوف به ، ويذكر الله فيه على نحو ما رأى ملائكة الله تصنع حول عرش ربهم ، فأقبل آدمُ يسير فى الأرض حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام ، فكان آدمُ أولَ مَنْ أَسَّسَ البيتَ من البَشَرِ ، وصَلَّى فيه ، وطاف به ، وطَافَ آدمُ بالبيت سبعا ، ثم صلَّى ركعتين تُجَاهَ باب الكعبة ، ثم أتى الملتزَم فقال: اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ سَرِيرَتِى وعَلاَنِيَتِى فَاْقْبَلْ مَعْذِرَتِى ؛ وتَعْلَمُ مَافِى نَفْسِى وَمَاعِنْدِى فَاغْفِرْ ذُنُوبِى ، وتَعْلَمُ حَاجَتِى فَأَعْطِنِى سُؤْلِى ، اللَّهُمَّ إنِّى أَسَأَلُكَ إيمَانًا يُبَاشِرُ قَلْبِى ، وَيَقِيناً صَادِقاً حَتَّى أعْلَمَ أنَّهُ لَنْ يُصِيبَنِى إلاَّ مَا كَتَبْتَ لِى ، وَالرِّضَا بِمَا قَضَيْتَ عَلَىَّ . فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ، قد دعَوْتَنِى بدعواتٍ فاستجبْتُ لك ، ولن يدعونى بها أحد من ولدك إلا كشَفْتُ غمومَه وهمومَه ، وكففْتُ عليه ضَيْعَتَه ، ونزعت الفقر من قلبه ، وجعلت الغِنَى بين عينيه ، وأتته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها .

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : حَجَّ آدم عليه السلام ، فقضى المناسك ، فلما حج قال : يارب ، إن لكل عامل أجراً ، فقال الله تعالى له : أما أنت يا آدم فقد غفرت لك ، وأما ذريَّتك فمَنْ جاء منهم هذا البيت فباء بذنبه غَفَرْتُ له .

و بقى بناء آدم حتى بعث الله تعالى الطوفان على عهد نوح عليه الصلاة والسلامُ فأتى الطوفانُ عليه وخفى مكانه .

فلما بعث الله تعالى إبراهيمَ خليلَ الله — صلى الله عليه وسلم ! — أمره أن يُجَدد بناء البيت ، ودَلَّه — سبحانه ! — على موضع البيت وعلى الأساسِ الذى كان آدم قد جعله ؛ بأن أرسل إليه غمامةً تظلل لَهُ المكان وترشده بظلها إلى قواعده ، فلم تزل هذه الغمامة راكدة مستقرة على حِفَاف البيت تظل إبراهيم وتهديه مكان القواعد حتى رَفَع القواعدَ قدرَ قامةٍ ، ثم انكشفت هذه الغمامة ، وذلك قولُ الله تبارك وتعالى (و إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئاً ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) وقوله سبحانه : (وعَهِدْنا إلى إبراهيم و إسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) .

فلما فرغ خليلُ الرحمن من بناء البيت الحرام جاءه جبريل فقال : طُفْ بالبيت سبعاً ، فطاف به سبعاً هو و إسماعيلُ ، يستلمان الأركان كلها فى كل طواف ، فلما أكملا سبعا هو و إسماعيلُ صَلَّيا خلف المقام ركعتين ،

ثم قام معه جبريلُ فأراه المناسكَ كلها : الصفا والمروة ، ومنًى ، ومزدلفة ، وعرفة ، فلما دَخل منًى وهَبَط من العَقَبة تمثَّل له إبليسُ عند جمرة العقبة ، فقال له جبريل : ارْمِهِ ، فرماه إبراهيمُ بسبع حَصَيَاتٍ ، فغاب عنه إبليس ، ثم مضى إبراهيم فى حجه وجبريلُ معه يُعَلِّمه المناسك ، ولَمَّا انتهى إلى عرفة قال له جبريلُ : أعرفت مناسكك ؟ قال ابراهيم : نعم

ثم أمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذِّن فى الناس بالحج ، فقال إبراهيم : يا ربِّ ، وما يبلغ صوتى ؟ فقال تعالى : أَذِّنْ وعَلَيَّ البَلَاغ ، فارتفع إبراهيمُ فوق شَرَفٍ ثم أقبل بوجهه يَمَناً وشاما وشرقا وغربا وهو يقول فى كل جهة : أيها الناسُ ، إن الله كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبُوا ربكم ، فأسمع الله تعالى بقدرته التى لا يعجزها شىء أقطارَ الأرض كلَّها فأجابوه : لبيك اللهم لبيك ، فكلُّ مَنْ حج من يومئذ إلى الآن فهو ممن أجاب إبراهيم ، وإنما يحجون البيتَ اليومَ على قدر إجابتهم يومئذ ، فمن حج حجتين فقد كان أجاب مرتين ، ومَنْ حج ثلاثا فقد كان أجاب ثلاث مرات ، وهكذا ، وذلك قول الله عز وجل لإبراهيم خليله : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق ؛ ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم لْيَقْضُوا تفثهم ، ولْيُوفوا نذورهم ، ولْيَطَّوَّفُوا بالبيت العتيق) ولم يبعث الله تعالى نبيا بعد إبراهيم عليه

الصلاة والسلام إلا حجَّ البيت ، ويروى أنه مات بمكة تسعة وتسعون نبيا ، وأن قبورهم فيما بين الركن إلى المقام إلى زمزم .

ثم جَدَّد بناء البيت الحرام — بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ! — العمالقة ، ثم جَدَّد بناءه بعدهم جماعة من جُرْهُم .

فلما كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله رسولا — وسِنُّه يومئذ خمس وثلاثون سَنَةً — ذهبت امرأة تُجَمِّرُ الكعبة ، فطارت شرارة من مجمرها ، فاحترقت كسوة الكعبة ، وعلقت النيرانُ بالكعبة نفسها ، فضعف بناؤها وتَصَدَّع ، ثم صادف أن جاء فى هذا العام سَيْلٌ جارف ، فدخل الكعبة ، فاشْتَدَّ الْوَهن وزاد التصدع ، ففزعت قريش فزعا شديدا ، ثم فكروا فى هدمها و بنائها من جديد ، فهابوا أن يُقْدِموا على هدمها ، ثم تشاوروا ، فاتفق رأيُهم على ذلك ، وتعاونوا عليه ، وأخذوا ينقلون الحجارة ورسولُ الله ينقل معهم على كتفه تَبَرُّرًا وتبركا بالكعبة ، واتفقوا على ألاَّ يُدْخِلُوا فى النفقة على تجديدها إلا طيبَ أموالهم ، فلم يُدْخلوا مالا كَسَبه أحدهم من ربًا أو مَيْسر أو غير ذلك من خبيث المال ، فلما جمعوا من المال ما وافَقَ شرطَهم هذا أحْصَوْهُ فإذا هو لا يكفى لعمارة البيت كله على قواعد إبراهيم ، فتشاوروا فى ذلك ، فأجمع رأيهم على أن يُقَصِّروا عن القواعد ويُحَجِّروا ما يقدرون عليه ، ويتركوا بقيته وعليه جِدَارٌ يطوف الناسُ من ورائه ، ففعلوا ذلك ، فلما شرعوا فى البناء رأوا أن يرفعوا باب الكعبة عن

الأرض ؛ حمايةً لها من السُّيُول أن تدخلها ، وَبَنَوْها بِسَافٍ من حجارة وسافٍ من خشب ، حتى إذا أرادوا أن يَضَعُوا الحجر الأسود اختلفوا فيمن يَضَعُه فى مكانه ، وأراد كل بطن من بطون قريش أن يكون الذى يضع الحجر الأسود فى مكانه منهم ، فلما خافوا عواقب الاختلاف اتفقوا على أن يجلسوا فى المسجد و يحكموا أول مَنْ يدخل عليهم من باب الصفا ، فكان أول داخل من هذا الباب هو النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : قد رضيناه ، ثم قصوا عليه أمرهم ، فَبَسَطَ النبى صلى الله عليه وسلم رداءه ووضع الحجر الأسود عليه ، ثم دعا من كل بطن رجلا ، وأَمَرَهم أن يأخذوا جميعاً بأطراف الثوب و يحملوا الحجر ، فلما بلغوا مكانه قام النبى صلى الله عليه وسلم على الجدار ووضعه بيده .

و يُرْوى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها أنها كانت تقول : إن النبى صلوات الله وسلامه عليه كان يقول لها : « لَوْلاَ قَوْمُكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ لنَقَضْتُ بناء الكعبة وأعدْتُ فيها ما تركوه منها ، وجعلْتُ لها بابين موضوعَيْن بالأرض : باباً شرقيا ، وباباً غربيا ، وهل تَدْرِين لِمَ كان قومُك رفعوا بابها ؟ قالت : قلت : لا ، قال : تعزُّزا لئلا يدخلها أحد إلا من أرادوا . و يُرْوَى أن عائشة رضى الله تعالى عنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنَّ قَوْمَكِ حين بَنَوْا البيتَ استقصروا عن قواعد إبراهيم ، قالت : فقلت له : يا رسول الله ، ألا تردها على قواعده ، فقال « لَوْلاَ حِدْثَانُ قومِكِ بالكفر لفعلت » .

ثم لما ولى عبدُ الله بن الزبير بن العوامِّ الخلافة ، وجعل عاصمة الخلافة الإسلامية مكة المكرمة ، وعبدُ الله بنُ أسماءَ بنت أبى بكر الصديق وعائشة أم المؤمنين خالَتُه ، رأى أن يفعل ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يريد أن يفعله ، وذلك أن يردَّ الكعبة إلى قواعد إبراهيم الخليل ، ويزيد فيها ما قصرت نفقة قريش عن أن تبلغه ، واتفق أن جيوش الشام جاءوا مكة يحاربون عبد الله بن الزبير وشيعته ، فتحصن منهم عبدُ الله وأصحابه بالكعبة فلم يَرْعَ أهلُ الشام حرمة بيت الله ، فَرَمَوْا مكة بالمجانيق ، فأصابت الكعبة فأوهَنَتْ بنيانها ، وصادف أن اشتعل فيها حريق ، فزاد فى ضعف البناء ، فاستشار عبدُ الله بن الزبير مَنْ معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار عليه بعضهم بأن يترك الكعبة على ما كانت عليه فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وألا يهدمها ، ولكن يُرَقِّعُ بناءها ، وأشار جابر ابن عبد الله وغيره بأن يهدمها ويعيد بناءها على قواعد إبراهيم على ما وصفه النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها ، فهدمها فى يوم السبت منتصف جمادى الأولى من سنة أربع وستين من الهجرة ، وما زال يهدم ويُنَحِّى الأحجار حتى كشف عن أساس إبراهيم ، فوجَدُوه داخلا فى الحِجْر نحوا من ستة أذرع وشبر ، فدعا عبدُ الله بن الزبير خمسين رجلا من وُجوه الناس وأشرافهم ، وأشْهَدَهم على ذلك الأساس ، ثم بدأ يضع البناء الجديد فوق ذلك الأساس حتى إذا بلغ موضع الحجَرِ الأسود أمَرَ بأن يُنْقَرَ له فى حَجَرَيْنِ ، ثم أمر به فوضع فى الموضع الذى نقروه ، وضعه عَبَّادُ

ابن عبدالله بن الزبير ، وأعانه عليه جبير بن شيبة ، وجعل ارتفاعها فى السماء سبعة وعشرين ذراعاً ، وجعل لها بابين لكل باب مصراعان ، وكان ارتفاعها فى بناء قريش ثمانية عشر ذراعاً ، وكانت قريش قد جعلت لها باباً واحداً بمصراع واحد ، فلما انتهى من بنيانها طَيَّبَهَا بالمسك من داخلها وخارجها وكساها ، ثم قال : مَنْ كانت لى عليه طاعة فليخرج فلْيَعْتَمِرْ من التنعيم ، فمن قدر أن يذبح بَدَنة فليفعل ، ومَنْ لم يقدر على بدنة فليذبح شاة ، ومَنْ لم يقدر فليتصدق بقدر طَوْله ، وخرج ماشياً وخرج الناسُ معه مُشَاة حتى اعتمروا من التنعيم شكراً لله تعالى ، ولم يَرَ أهلُ مكة يوماً كان أكثر عبيداً عُتِقوا وأكثر بدنةً منحورة وأكثر شاة مذبوحة وأكثر صدقةً على الفقراء والمساكين من ذلك اليوم ، ونحر ابنُ الزبير وحده مائة بَدَنة ، ولما طاف بالبيت استلم الأركان الأربعة جميعاً ، وقال : إنما تُرِكَ استلامُ الركن الشامى والمغربى فيما مضى (يريد فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد الخلفاء الراشدين) لأن البيت لم يكن تماما .

ولم يزل البيت على بناء ابن الزبير ، وإذا طاف الطائفون به استلموا الأركان الأربعة جميعاً ، وإذا دخل أحدهم الكعبة من الباب الشرقى خرج من الباب الغربى ، والبابان لاصقان بالأرض ، حتى قُتِلَ ابنُ الزبير ودخل الحجاجُ بن يوسف فى عهد عبد الملك بن مروان مكة ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك أن ابن الزبير زاد فى البيت زيادة لم تكن على عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وأحدث فيه باباً ثانياً ، واستأذنه فى أن يرد الكعبة على ما كانت عليه فى الجاهلية ، فكتب إليه عبد الملك بن مروان يأذنه فى ردّ الكعبة إلى ما كانت عليه ، ورسم له خطة ذلك : أن يسد بابها الغربى الذى فتحه ابنُ الزبير ، ويهدمَ ما كان زاد فيها من الحِجْرِ ، فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبراً مما يلى الحجر ، وبناها على أساس قريش الذى كانت استقصرت عليه ، وسدّ الباب الغربى الذى كان فى ظهرها ، وترك ما عدا ذلك لم يحرك منه شيئاً ، ورفع عتبة الباب الشرقى أربعة أذرع وشبراً

ويُرْوَى أن عبد الملك بن مروان — فيما بعد — ندم على ما أذن للحجاج فى ذلك ، وقال : وَدِدْتُ والله أنى تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك .

وإنما بينا ذلك كله بيَاناً وافياً لأن له مَدْخَلاً فى الطواف بالبيت واستلام ما يُسْتَلم من أركانه ، وسيظهر ذلك فى الكلام على الطواف بالبيت إن شاء الله تعالى .

كسوة الكعبة

أول من كسا الكعبة في الجاهلية ملك من تبابعة اليمن اسمه « تُبان أسعد » يروون أنه أُرِيَ في المنام أن يكسو البيت ، فلما أصبح كساه بخصفٍ نسجها من خوص النخل وليفه ، ثم أُرِيَ مرة أخرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فلما أصبح كساه نوعاً من ثيابٍ تصنع في اليمن ، ثم أرى ثالثة أن يكسوه أحسن من ذلك ، فلما أصبح كساه ثياباً من فاخر ما يصنعه أهل اليمن ، وأوصى بالبيت وُلاته من جُرْهُم ، وأمرهم بتطهيره ، وألا يقربوه دماً ولا ميتة ، وجعل له باباً ومفتاحاً ، وفي ذلك يقول تبع :

وكَسَوْنَا البيْتَ الذي حَرَّمَ اللـــه مُلاءً مُعَضَّدا وبُرُوداً
وأقَمْنَا بِهِ مِنَ الشهرِ عَشْرا وجَعَلْنَا لبَابِه إقليدا(١)

وفي هذا تقول سُبَيْعَةُ بنت الأحبِّ في كلمة توصي ابنها فيها بتعظيم مكة و بيتِ الله تعالى وتذكر تبعاً وما صنع بها :

أُبُنَيَّ لا تظـــلم بمكـــةَ لا الصَّغيرَ ولا الكبيرْ
أُبُنَيَّ قَدْ جَرَّبْتهـــا فوجَدْتُ ظالمها يَبُورْ(٢)
اللهُ آمنهـــا ومَا بُنيت بعرْصَتِهَا قُصُورْ
وَاللهُ آمَنَ طـــيرَهَا والعُصْمُ تأمَنُ فِي ثَبِـــير

(١) الإقليد : المفتاح
(٢) يبور : يهلك

وَلَقَدْ غَزَاهَا تُبَّعٌ فَكَسَا بَنِيَّتَهَا الْحَبِيرْ
وأذَلَّ رَبِّي مُلْكَهُ فِيهَا فَأَوْفَى بِالنُّذُورْ
وَيَظَلُّ يُطْعِمُ أهلَهَا لَحْمَ الْمَهَارِي وَالْجَزُورْ

ثم كان أهلُ الجاهلية يُهْدُون إلى الكعبة أنواعا مختلفة من جُلود الأنعام[١] والثياب، فكانوُلاَةُ البيت وسَدَنَتُه[٢] تأخذ من ذلك ما تكسو به الكعبة، وتجعل مايبقى فى خزانتها، فإذا بَلِيَ منها شيء أخذ مما فى الخزانة مكانه ثوب آخر، وكانوا ربما أهْدَوْا إليها طيباً فتُطَيَّبُ به من داخلها ومن خارجها.

حتى كان زمن قُصَى بن كلاب — وهو الجد الرابع للنبى صلى الله عليه وسلم — فاتفق مع قبائل العرب أن يتعاونوا كُلٌّ على قدر احتماله فى كسوة الكعبة.

ومازال الأمر على هذا حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم — وهو جَدُّ الشاعر عمر بن عبدالله بن أبى ربيعة المخزومى — وكان أبو ربيعة تاجرا، وكان يختلف إلى اليمن يَتَّجِر بها ويجلب منها الثياب، فأثرى وصار له مال كثير، فقال لقريش: أنا أكسو الكعبة وحدى سنةً، وجميعُ قريشٍ يكسونها سنة، فوافقوا على ذلك، وسَمَّوهُ العِدْل؛ لأنه عَدَلَ بفعله فعلَ قريش كلها.

(١) الأنعام: الإبل والبقر ونحوهما
(٢) سدنته: حجابه والذين بيدهم مفتاحه

وكانوا يختارون لكسوة الكعبة يوم عاشوراء — وهو اليومُ العاشر من شهر المحرم — بعد أن يذهب الحاجُّ ، حتى إذا ولى البيتَ بنو هاشم اختاروا أن يكسوا الكعبة يوم التروية — وهو اليوم الثامن من شهر ذى الحجة — القُمُصَ من الحرير ؛ ليَرَى الناسُ ذلك فى الحج ، وتكون الكعبة أمامهم ذاتَ بهاء وجمال ، ثم يُتِمُّوا كسوتها يوم عاشوراء .

ويُرْوَى أن النبى صلى الله عليه وسلم كَسَا الكعبة ، ويروى أن أبا بكر كساها ، ويروى أن عمر كساها ، ويروى أن عثمان كساها ، ورَوَوا أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان — فى زمن خلافته — يُرْسِلُ إلى مصر لتصنع له كسوة الكعبة هناك .

فلما كان عصر معاوية بن أبى سفيان أمر أن تُكْسَى الكعبة مرتين : مرة يومَ عاشوراء ، ومرة فى آخر شهر رمضان ، وقرر لها مقداراً من الطيب كان يبعثه إليها فى شهر رجب ، وجعل لها عَبيداً يخدمونها ، ثم اتبع وُلاة المسلمين ذلك .

فلما كان عصر المأمون العباسى رُفِع إليه أن كسوة الكعبة تَبْلَى وتتخرق قبل أن يحين موعدُ تغييرها ، فأمر أن تكسى الكعبةُ ثلاثَ مراتٍ فى كل سنة : مرة يوم التروية ، ومرة يوم هلال رجب ، ومرة فى السابع والعشرين من شهر رمضان .

وبقى الأمرُ على هذا حتى ضَعُفَ أمر العباسيين ، فصارت كسوة الكعبة

تُرْسَلُ إليها تارةً من اليمن ، وتارةً أخرى من مصر ، ثم استقر الحال على أن ترسل الكسوة الخارجية كل عام من مصر ، فأما الكسوة الداخلية فكانت تتجدد كلما تجدد ملك أو سلطان ، وجاءت فترة من الزمن كانت الكسوة الداخلية ترسل من الآستانة وترسل معها كسوة الحجرة النبوية بالمدينة وطيبُ الكعبة وبخورها والحبال التي تلزم لربط أستار الكعبة ، وكانت كل هذه الأشياء ترسل مع المحمل الشامي في كل عام .

وفي سنة ٧٥٠ من الهجرة وقف الملكُ الصالحُ إسماعيل بن الملك الناصر ابن قَلاَوُون ثلاثَ (١) قُرًى من قرى مصر على أن تُصْنع من رَيعها كسوةُ الكعبة ، والحجرةِ النبوية ، ثم اشترى السلطان سليمانُ بن السلطان سليم العثماني سَبْعَ قُرى (٢) أخرى من قرى مصر وضَمَّها إلى وقف الملك الصالح إسماعيل

واستَمَرَّ الحالُ على هذا إلى عهد محمد على جدِّ العائلة المالكة في مصر ، فحلَّ هذا الوقْفَ ، وأمر بإنشاء مصلحة من مصالح الحكومة لصنع كسوة الكعبة ، تُنْفق عليها الحكومة المصرية من المال العامِّ ، ولا يزال ذلك جاريا إلى اليوم .

---

(١) هي قرية بسوس ، وقرية سنديس ، وقرية أبي الغيط ، وكلها في مديرية القليوبية القريبة من القاهرة في شماليها .

(٢) هذه القرى السبع هي : سلكا ، سرو بجبجة ، قريش الحجر ، منايل وكوم رحان ، بجام ، منية النصارى ، بطاليا .

مفتاح الكعبة

كانت خدمة الكعبة فى الجاهلية والقيامُ بشؤونها وفَتْحُ بابها و إغلاقه فى يَدِ طَسْمٍ قبيلةٍ من عاد ، ثم نزع الله تعالى ذلك منهم حين استخفوا بالكعبة ولم يَرْعَوْا حرمتها ، فصارت لجرهم ، ولم تكن حالُهم أحْسَنَ من حال سَلَفِهِمْ ، فنزعَ الله من أيديهم مفاتيح الكعبة . فصارت فى يد قُصَىّ بن حكيم ، ثم دفعها قُصَىٌّ إلى ابنه عبد الدار بن قُصَىٍّ ، ثم قام بها من بعده ابنه عثمان بن عبد الدار .

وكان مفتاح الكعبة يوم فَتْحِ مكة فى يد عثمان بن طَلْحة بن أبى طَلْحَةَ وكان عثمان بن طلحة يسمى « حاجب الكعبة » وعملُه يسمى « الحِجَابة » وكانت سِقَاية الحاج (١) يومئذٍ بيد العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فلما دخل النبى صلى الله عليه وسلم البيتَ الحرامَ وطاف بالكعبة ، دعا بلالَ بن رَبَاحٍ فأرسله إلى عثمان بن طلحة فقال له : قل لعثمان إن رسول الله يأمرك أن تأتيه بمفتاح الكعبة ، فجاء بلال إلى عثمان بن طلحة فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تأتيه بمفتاح الكعبة ، فقال عثمان : نعم ، ثم خرج عثمان فانطلق إلى أمه — والمفتاح ساعتئذ عندها — فقال لها : يا أُمَّتِ ، أعطينى المفتاح فإن رسول الله صلى الله

---

(١) سقاية الحاج : هى القوامة على بئر زمزم ، ونزع الماء منها ، وسقى حجاج بيت الله ، وكانت فى يد عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم ، منذ حفر بئر زمزم ، وسيأتى لنا ذكر ذلك

عليه وسلم أرسل إلى وأمرنى أن آتى به إليه ، فقالت له أمه : أعيذُكَ بالله أن تكون أنت الذى تَذْهَبُ مأثرةُ قومِك على يديك ، فقال لها : والله لتَدْفَعِنَّهُ أو ليأتينَّكِ غيرى فيأخذه منك ، فأدخلت المفتاح فى حجرها ثم قالت : أىُّ رجلٍ يُدْخِلُ يده ها هنا ؟ فبينما هما على ذلك إذ سمعت صوتَ أبى بكر وعمر فى الدار ، وعمرُ رافعٌ صوته حين رأى إبطاء عثمان ، وهو ينادى : يا عثمان اُخرج ، فقالت أمُّ عثمان : يا بنى خُذِ المفتاح ، فَلأَنْ تأخذهُ أنت أحبُّ إلى من أن يأخذَه تَيْم وعَدِى (تريد بتيم أبا بكر ، و بعدى عمر) فأخذه عثمان ، فأتى به النبىَّ صلى الله عليه وسلم فلما ناولَه المفتاحَ فَتَح الكعبة ، فدخَلها صلى الله عليه وسلم ومعه أسامة بن زيد و بِلالُ بن رَباح وعثمان بن شيبة ، وأمر أن يغلق عليهم بابُ الكعبة ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جوف الكعبة ماشاء الله ، ثم خرج والمفتاحُ فى يده ، وكان على الباب خالد بن الوليد يَدْفَع الناسَ عنه ، فلما خرج نبى الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضَادَتَىِ الباب ، وأشرف على الناس والمفتاحُ فى يده ، ثم جعله فى كمه ، ثم تنحَّى ناحيةً من المسجد ، فجاءه العباسُ بن عبد المطلب عمُّه فقال : بأبى وأمى أنت يارسول الله ، اُجْمَعْ لنا بين الحجابة والسقاية ، فقال صلى الله عليه وسلم : « خذوها يابَنِى أبى طلحة تالدَةً مخلدة فيكم ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمانُ ، إن الله — سبحانه وتعالى ! — استأمنكم على بيته ؛ فخذوها بأمانة الله عز وجل » ثم ناوَلَه المفتاح .

قالوا : وفى رد النبي صلى الله عليه وسلم مفتاحَ الكعبة إلى عثمان بن طلحة نَزَل قولُ الله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها)

و بقى المفتاح فى يد عثمان حتى خرج مهاجراً إلى المدينة ، فَخَلَفَهُ فى حِجَابة الكعبة شَيْبَة ابنُه ، وهى فى أيديهم إلى يوم الناسِ هذا ، لا ينزعها منهم إلا ظالم كما قال رسول الله ، وصَدَق رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

(١) ولا يزال الناس إلى يوم الناس هذا يسمون الذى بيده مفتاح الكعبة « الشيبى » نسبة إلى شيبة بن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة

ذرع الكعبة

الكعبة المعظَّمَةُ عبارةٌ عن بناءٍ فَخْمٍ ضَخْمٍ على شكل حُجْرة مستطيلةٍ وهى التى تُسَمَّى « بيت الله الحرام » وهى — وحدها — التى بناها إبراهيمُ خليلُ الرحمن ، فأما المسجدُ الذى تقع الكعبة فى وَسَطِهِ تقريباً فإنه مما بُنِيَ بعد إشراق نور الإسلامِ ، وأولُ مَنْ وضع فيه لبِنَةً هو أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطابِ — رضى الله تعالى عنه ! — وسنبين لك موضوع عمارة المسجد الحرام فيما بعد .

وأنت إذا وقَفْتَ أمام الكعبة متأملا أخذتْكَ الروْعَةُ والجلالُ اللذان أحاطهما الله بها ، فإذا حاولت أن تعرف أبْعَادها بالمقاييس المعروفة لنا الآن وجدت ارتفاعها خمسة عشر مترا ، وطول ضلعها الشمالى تسعة أمتار واثنان وتسعون سنتيا ، وطول ضلعها الغربى اثنا عشر مترا وخمسة عشر سنتيا ، وطول ضلعها الجنوبى عشرة أمتار وربع متر ، وطول ضلعها الشرقى أحد عشر مترا وثمانية وثمانون سنتيا ، وفى الضلع الشرقى بابُها ويرتفع عن الأرض قريباً من مترين ، وله سُلَّمٌ صُنع من الخشب ولُبِّس بالفضة يُصْعَدُ عليه . ويُلاَصِقُ جدار الكعبة من جهاتها الأربع من الأسفل بناءٌ من الرخام قد أقيم تقويةً لجدُرِها ودَعْماً لبنائها ، وهو مختلف فى الارتفاع والعرض فتجده

فى الجهة الشمالية على ارتفاع نصف متر فى عرض تسعة وثلاثين سنتيا ، وفى الجهة الغربية على ارتفاع سبعة وعشرين سنتيا فى عرض ثمانين . وفى الجهة الجنوبية على ارتفاع أربعة وعشرين سنتيا فى عرض سبعة وثمانين ؛ وفى الجهة الشرقية على ارتفاع اثنين وعشرين فى عرض ستة وستين

ويقول بعض العلماء — ومنهم النووى وابن الصلاح — إن أصل هذا الشاذروان هو مقدار ما نقصته قريش من عَرْض جدار الكعبة حين بنتها .

ونريد أن نبين لك ذَرْعَ الكعبة فى كل مرة من المرات التى بنيت فيها ، على حَسَب ما قال العلماء الأثبات .

١ — كان ذَرْعُ الكعبة فى بناء إبراهيم خليل الرحمن ثلاثين ذراعا طولاً ، واثنين وعشرين ذراعا عَرْضاً ، وتسعة أذْرُع ارتفاعا فى السماء ، ولم يجعل لها إبراهيم سَقْفاً .

٢ — فلما بنتها قريش قبل مَبْعَث النبى صلى الله عليه وسلم زادت فى ارتفاعها إلى السماء تسعة أذْرُعٍ أخرى فكان ارتفاعها فى السماء ثمانَ عشرةَ ذراعا ، ونَقَصُوا من طولها فى الأرض سِتَّ أذرع وشبرا تركوها فى الحجر ، وحَجَّرُوا على هذه المساحة ليطوف الناسُ من وراء التحجير ، فصار طول الكعبة أربعاً وعشرين ذراعا إلا شبرا ، وبقىَ عرضها كما كان فى بناء إبراهيم صلى الله عليه وسلم .

٣ — فلما بناها عبدُ الله بن الزبير بن العوام ردَّها فى الطول إلى

ما كانت عليه فى بناء إبراهيم ، وكذلك فى العرض ، وزاد فى ارتفاعها فى السماء تسعَ أذرع أخرى فوق ما زادته قريش فى ارتفاعها ؛ فصار ارتفاعها فى السماء سبعاً وعشرين ذراعا ، وطولها فى الأرض ثلاثين ذراعا ، وعرضها فى الأرض اثنين وعشرين ذراعا ، وأوطأ بابها(١) إلى الأرض ، وجعل لها بابا ثانيا مُقَابِلَ بابها الأول .

٤ — فلما مات ابن الزبير هَدَمَ الحجاجُ بن يوسفَ الثقفيُّ بأمر عبد الملك ابن مروان الزيادةَ التى زادها عبدُ الله بن الزبير ، ورَدَّ طولَها إلى ما كانت صنعته قريش أربعة وعشرين ذراعا إلا شبرا ، وأخذ الحجارة التى هدمها فكبس بها جوفَ الكعبة حتى رفع أرضها عن الأرض التى حَوْلَهَا ، ورفع بابها الأول الذى فى وجهها عن الأرض ، وسَدَّ البابَ الثانى الذى فى ظهرها والذى كان ابن الزبير قد أحدثه .

٥ — وذَرْعُ أضلاع البناء من خارج : أما الضِّلَع الذى يمتد من الركن الأسود إلى الركن الشامى وهو وجه الكعبة فطولُه خمسٌ وعشرون ذراعا ، وأما الضِّلَع الذى يمتد من الركن اليمانى إلى الركن الغربى وهو ظهر الكعبة فطولُه خمسٌ وعشرونَ ذراعا أيضاً ، وأما الضِّلَع الذى يمتد من الركن الأسود إلى الركن اليمانى فطولُه عشرون ذراعا ، وأما الضِّلَع الذى فيه الحِجْرُ والذى يمتد من الركن الشامى إلى الركن الغربى فطولُه أحد وعشرون

(١) أوطأ بابها : أى جعله عند الأرض ، لم يرفعه كما فعلت قريش

ذراعا ، وللكعبة سقفان أحدُهما فوق الآخر ، وذَرْع الجدار ذراعانِ كلُّ ذراع أربعة وعشرون إصْبَعاً

٦ — فأما ذرع الكعبة من داخل البناء فإن ارتفاع بنائها من الأرض إلى سقفها الأسفل ثمانَ عشرةَ ذراعاً ونصفَ ذراع ، وارتفاعها من الأرض إلى السقف الأعلى عشرون ذراعا ، و بين السقفين فُرْجَة ، وللكعبة من فوق سَطْحها سور ارتفاعُه ذراعان ونصف ذراعٍ ، وقد ثُبِّتَ في هذا السور قطع من خشب الساج ، وقد وضعت فيه حلق من حديدٍ تُشدُّ فيها ثياب الكعبة

وذَرْعُ الضِّلَع الذي يمتد من الركن الأسود إلى الركن الشامي من داخل تسعَ عشرةَ ذراعا وعشر أصابع ، وفي هذا الضلع بابُ الكعبة ، وذَرْع الضِّلَع الذي يمتد من الركن الشامي إلى الركن الغربي من داخلٍ خمسَ عشرةَ ذراعاً وثمانَ عشرةَ إصبعاً ، وذَرْع الضِّلَع الذي يمتد من الركن الغربي إلى اليماني — وهو ظهر الكعبة — عشرون ذراعاً وستُّ أصابع ، وذَرْع الضِّلَع الذي يمتد من الركن اليماني إلى الركن الأسود ستَّ عشرةَ ذراعاً وستُّ أصابع

٧ — فأما باب الكعبة فارتفاعُ فتحته في السماء ستُّ أذرع وعشر أصابع ، وعَرْضُ ما بين جِدَارَيْه ثلاثُ أذرع وثمانَ عشرةَ إصبعا ، والجداران والعتبة العُلْيا للباب ونجافه [1] قد ألبست صفائح من ذهب منقوش ، وفي

---

(١) النجاف — بكسرة النون وفتح الجيم — العتبة ، والمراد هنا العتبة السفلى

الجدارين أربعَ عشرةَ حلقةً من حديد مُموَّهة بالفضة فى كل جدار منهما سبعُ حلَقٍ يشدُّ بها حوف الباب من أستار الكعبة ، وقد صنع الباب من خشب الساج ، وجُعِلَ مصراعين عرضُ كل مصراع ذراع وثمانَ عشرةَ إصبعاً ، وغلظه ثلاثُ أصابع ، فإذا أغلق المصراعان فعرضهما جميعاً ثلاث أذرع ونصف ذراعٍ ، وفى كل مصراع ستُّ عَوَارض متخذة من ساَسَمٍ ، وظَهْرُ الباب من داخل ملبس صفائح من فضة ، ووجه الباب ملبس صفائح من ذهب بعضُها منقوش و بعضُها ساذَج (غير منقوش)

الحجر {حجر إسماعيل والحطيم}

الحِجْرُ : يُطلق على الجزء الذى تركته قريش — حين أرادت أن تبنى الكعبة قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم — بسبب ضيق ما حصَّلوه من نفقة بناء البيت ، وهذا الجزء — عند التحقيق — من الكعبة على ما كان بناها إبراهيم خليل الرحمٰنِ صلواتُ الله وسلامه عليه ، كما بينا مراراً ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر كل ذلك لعائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، وأظهر لها رغبته فى أن يُعيد بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ، وأن يجعل لها بابين : باباً يدخل فى جوفها منه ، و باباً يخرج منه يكون فى مقابل الباب الأول ، وأن يجعل البابين لاطئين بالأرض ليسهل دخولها والخروج منها ، وأنه لم يمنعه صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك كله إلا أن قريشاً كانت حديثَةَ عهدٍ بالإيمان ، فخشى أن يفتتنوا فيظنوا أنه هَدَم الكعبة ليستقل بشرف بنائها وفضل إعادتها إلى ما كانت عليه ، فانتظر حتى تخالطُ بشاشَةُ الإيمان قلوبَهم ، و يكون شأنهم التسليم له فى كل ما يأتى وما يَذَر

ومما يدل على ذلك أن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كنتُ أحبُّ أن أدخل الكعبة فأصلى فيها ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فأدخلنى الحِجْرَ وقال لى : صَلِّى فى الحِجْرِ إذا أردتِ دخولَ البيتِ ، فإنما

هو قطعة من البيت ، ولكن قومك استقصروا حين بَنَوُا الكعبة فأخرجوه من البيت .

وكان ابن عباس رضى الله تعالى عنه يقول: الحِجر من البيت ،

ويقال : إن فى جِوَارِ هذا المكان قَبْرَ إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، عليهما الصلاة والسلام !

ومن أجل هذا يُسَمى الجزء المجاور لهذا الجزء « حِجْرَ إسماعيل » وبعضُ العلماء يسمى هذا الجزءَ «الْحَطِيمَ» أيضا ، [1] وهو ما تجده فى كتب علماء الحنفية ، وهؤلاء يذكرون أنه إنما سُمِّى الحطيمَ لأنه حُطِمَ من الكعبة : أى فُصِلَ منها واقْتُطِع ، وهذا ـ على ما علمت فى بحث بناء الكعبة ـ حدث فى بناء قريش لها

وبعض العلماء يقول : إن الحطيم اسمٌ للجزء الواقع ما بين الحجَر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم .

(١) وربما سموا السور الذى يحيط بالحجر الحطيم المجاورة .

الحجر الأسود

الحجر الأسْوَدُ هو مبدأ الطواف على ماستعلمه إن شاء الله ، وهو موضوع في الركن الجنوبي الشرقي للكعبة من خارجها على ارتفاع متر ونصف تقريباً، ولونُه الآن أسود ، وله تجويف كأنه طاسٌ من طاسات الشرب ، وفي وسَطه فتحة مستديرة تزيد عن الشبر قليلا ، وقد حدث فيه تشقُّق فعُمِل له غطاء من الفضة .

وقد وَرَد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان يقول : لَيْسَ في الأرض من الجنة إلا الحجَرُ الأسودُ والمقامُ[1] : فإنهما جوهرتان من جَوْهر الجنة ، ولولا ما مَسَّهما من أهل الشرك ما كان يَمَسُّهما ذو عاهة إلا شفاه الله عز وجل .

ووردَ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه كان يقول : لولا ما مَسَّ الحجَرَ الأسْوَدَ من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم ما مَسَّه ذو عاهة إلا برأ ، وكان يقول : نزل الحجر الأسود وإنه لأشَدُّ بياضاً من الفضة .

وروت عائشة أم المؤمنين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها وهي تطوف بالكعبة حين استلم الحجَر الأسوَدَ : لولا ماطُبِعَ على هذا الحجر يا عائشةُ من أرجاس الجاهلية وأنجاسها ، إذَنْ لاسْتُشْفِيَ بِهِ من كل عاهة ،

---

(١) المقام : هو مقام إبراهيم ، وسنتكلم عليه فيما بعد

وإذن لألفى[1] اليوم كهيئته يوم أنزله الله عزوجل ، وليعيدنّه الله إلى ما خلقه أول مرة ، وإنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة ، ولكن الله — سبحانه ! — غيّره بمعصية العاصين ، وستر زينته عن الظلمة والأثمة ؛ لأنه لا ينبغى لهم أن ينظروا إلى شىء كان بدؤه من الجنة .

ورُوى عن ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما ! — عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله — عز وجل ! — يبعث الحجرَ الأسود وله عينان يُبصر بهما ولسانٌ ينطق به ، يشهد لمن استلمه بحق .

وعن ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما ! — أنه قال : الركنُ يمينُ الله فى الأرض يُصافح بها عباده كما يُصافح أحدُكم أخاه .

وعنه رضى الله عنه أنه قال : ليبعثنّ الله — عزوجل ! — هذا الحجر يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق .

وعن عكرمة أنه قال : إن الحجر الأسود يمينُ الله فى الأرض ؛ فمَن لم يُدرك بيعة[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله .

وعن ابن عباس — رضى الله عنهما ! — أنه قال : إن الحجر الأسود يمينُ الله فى الأرض يصافح بها خلقه ، والذى نفسُ ابنِ عباسٍ بيده ما مِن امرئٍ مُسْلم يسأل الله عنده شيئاً إلا أعطاه اللهُ إياه .

---

(١) ألفى : أى وجد ، يعنى كان الناس يجدونه شديد البياض

(٢) يريد من لم يحضر بيعة الرضوان تحت الشجرة ومسح على الحجر الأسود بيده فكأنه حضر البيعة ووضع يده فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد رُوى من غير وجه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر الأسوَدَ فى طوافه ويُقَبله .

وروى أن ابن عباس قبله وسَجَد عليه ، ثم قبله وسجد عليه .

وقد روى من وجوه عديدة أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه! ـ كان يقبل الحجر الأسْوَدَ ويقول : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

ويروى أنه لما قال ذلك سمعه على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فقال : بَلَى يا أمير المؤمنين . إنه يضر وينفع ، فقال : وبِمَ ذلك ؟ قال : بكتاب الله تعالى ، فقال عمر : وأين ذلك من كتاب الله تعالى ؟ فقال على : قال الله تعالى : (وإذ أخذ رَبُّكَ من بنى آدَمَ من ظهورهم ذريتهم ، وأشْهَدَهم على أنفُسِهِمْ ، ألَسْتُ بربكم ؟ قالوا : بَلَى ، شهدنا) ثم قال : إن الله تعالى لما خلق آدَمَ مَسَح ظهره فأخرج ذرِّيَّته من صُلْبه ، فقرَّرهم أنه الربُّ وهم العبيد ، ثم كتب ميثاقهم فى رَقٍّ ، وكان هذا الحجر له عَيْنَان ولسان ، فقال له : افتح فاك ، قال : فألْقَمَهُ ذلك الرق ، وجَعَله فى هـذا الموضع ، وقال : تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة ، فقال عمر حين سمع ذلك : أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قومٍ لَسْتَ فيهم يا أبا الحسن .

ولا تظن أن بين قولِ عمر رضى الله تعالى عنه « إنك حجر لا تضر ولا تنفع » وقولِ على رضى الله تعالى عنه « بلى إنه يضر وينفع » خلافا ،

فإن الضر والنفع اللذين نفاهما عمر غير الضر والنفع اللذين أثبتهما على ، رضى الله تعالى عنهما جميعاً ! فالضر والنفع اللذان أراد عمرأن الحجر لا يجلبهما لأحد ، هما ما كان من نحو شفاء المرضى وجَلْب الرزق ودفع الأذى و إطالة العمر وهكذا مما تعود الناس أن يلجؤا فيه إلى الله تعالى وحده ، ولا شك أن كل ذلك مما لا يجلبه الحجر ولا يدفعه ، و إنما يفعله ربُّ الناس ملك الناس إله الناس ، الذى بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، فمن أراد شيئاً من ذلك فلا ينبغى أن يتوجّه برغبته إلا إلى مَنْ بيده ناصيتُه ومَنْ عنده خزائن الدنيا والآخرة ، ولو طَلَبَ من الله تعالى ذلك عند الحجر بنية خالصة وهو عالم أن فاعل ما يرجو هو الله كان خليقا بأن يجيب الله تعالى سؤاله كما ورد عن سيد البشر صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه الأخيار ، فأما النفع والضر اللذان أثبتهما على — رضى الله عنه! — فهما الشهادة لمن استلمه بنية خالصة وعقيدة سليمة تُوَافق ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم — ومنها أنَّ النافعَ والضَّارَّ هو اللهُ تعالى وحده — فإن ذلك ثابت عن الرسول صلوات الله وسلامُه عليه وعن البررة الأتقياء من أصحابه من أن الله تعالى يبعث الحجر يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق ، والله — سبحانه وتعالى! — قادر على كل شيء ؛ فهو — جلت قدرته! — يُنْطِق الحجر كما ينطق جُلُود الناس يوم القيامة لتشهد على أصحابها بما فعلت من خير وشر

اللهم اجعلنا ممن يشهد له هذا الحجر الكريم بين يديك، واجعل شهادته لنا ولإخواننا من المؤمنين نجاةً من عذابك ، يا برُّ يا رحيم، يا تواب يا كريم، اللهم آمين

إستلام أركان البيت

قد علمت أن للبيت أربعة أركان : الركن الذى عنده الحجر الأسْوَدُ ، ويسمى الركْنَ الأسْوَدَ ، والركن اليمانى ، والركنان الآخران اللذان عند الحِجْرِ : أى المكان الذى نَقَصَتْه قريش من قواعد إبراهيم ويروى أن بجواره قبر إسماعيل .

وعرفت فيما قدمناه لك أيضاً أن الكعبة قد مَرَّ عليها أربعة أدوار منذ بناها إبراهيم خليلُ الرحمن صلوات الله وسلامه عليه ، وأنها بنيت كاملةً فى دورين من هذه الأربعة ، وانْتُقِصَ منها فى الدورين الآخَرَيْنِ ، فأما الدوران اللذان بنيت فيهما كاملةً فأحَدُهما عند بناء إبراهيم الخليل ، وثانيهما عند بناء عبد الله بن الزبير بن العَوَّام الذى أراد أن يُعيدها إلى ما كانت عليه فى بناء إبراهيم الخليل ، والذى فَعَل ذلك تطبيقا لرغبة النبى صلى الله عليه وسلم التى سمعها من عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وأما الدورانِ اللذانِ بنيت فيهما ناقصةً فأحَدُهما عند بناء قريش لها والنبىُّ صلى الله عليه وسلم حاضر معهم قبل أن يبعثه الله رسولاً ، وثانيهما عند تولِّى الحَجَّاجِ ابن يوسف الثَّقَفِىِّ الإمارةَ بمكة فى زمن عبد الملك بن مروان ، فإنه هدم الزيادةَ التى زادها عبدُ الله بن الزبير ، ونَقَصَ من الكعبة مكانَ الحِجْر مستندا إلى أنها كانت كذلك فى عهد النبى صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليه .

ومن هنا تعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم طاف بالكعبة فى حَجِّهِ وعُمْرَتِهِ وهى على بناء قريشٍ الناقِص عن بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأن المسلمين من أصحابه رضى الله تعالى عنهم طافوا بها معه على هذا الوجه ، وطافوا فى حياته صلى الله عليه وسلم وليس هو معهم كذلك ، وأن الخلفاء الراشدين الأربعةَ رضوانُ الله تعالى عليهم طافوا بها وطاف بها المسلمون فى عصرهم كله على ذلك ، وأن الحال استمر كذلك إلى عهد عبد الله بن الزبير وأن عبد الله بن الزبير والمسلمين فى عصره طافوا بالكعبة وهى تامة البناء على قواعد إبراهيم الخليل ، ثم رَجَعَ الأمرُ بعد موتِ عبد الله بن الزبير وتجديدِ بناء الكعبة إلى ما كان عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الأربعة الراشدين ، وبقى على ذلك إلى يومنا هذا .

أما إبراهيم الخليل صلوات الله عليه فقد طاف بالكعبة التى بناها على القواعد التى أراه الله تعالى إياها ، وكان يستلم الأركان الأربعة فى طوافه ؛ لأنها تامة البناء حينئذ .

وأما النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الأربعة الراشدون وجميع أصحابه وتابعيهم إلى عهد ابن الزبير فقد طافوا بالكعبة على بناء قريش الناقِص من جهة الحِجْر عن بناء إبراهيم ، وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قد كان يستلم الركن الذى عنده الحجَرُ الأسود ، وكان يكبر عند استلامه ، وكان يستلم الركن اليماني ويقول : ما مررت بالركن اليمانى إلا وجدت

جبريل عليه قائما ، وكان يقول فيما بين الركن الذى عنده الحجَر الأسود والركن اليمانى : رَبَّنا آتِنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حَسَنَةً ، وقنا عذاب النار ، وإذا بلغ الركن اليمانى قال : اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والذل والفَقْر ومواقف الخِزْى فى الدنيا والآخرة ، ربنا آتِنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار

وروى مجاهد أن مَنْ وضع يَدَه على الركن اليمانى ثم دَعَا الله تعالى استجيب له

وكان الزبير بن العوام يقول لابنِهِ عبدِالله : يا بنى ، أَدْنِنِي من الركن اليمانى ؛ فإنه يقال إنه باب من أبواب الجنة .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يستلم الحجَر الأسود ، ويكبر عند استلامِهِ ، ويقول : بسم الله ، والله أكبر ، والحمدُ لله على ماهدانا الله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، آمنت بالله ، وكفرت بالطاغوت وباللَّاتِ والعُزَّى وما يُدْعىٰ من دون الله ، إن وَلِيِّيَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

وكان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون عند استلام الركن الذى عنده الحَجَرُ : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم إيماناً بك ، وتصديقا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

وكان على بن أبى طالب إذا مر بالركن اليمانى قال : بسم الله ، والله أكبر ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمة الله وبركاته ، اللهم إنى

أعوذ بك من الكفر والفقر والذل ومواقف الخِزْى فى الدنيا والآخرة ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : على الركن اليمانى مَلَكَانِ مُوَكلان يؤمِّنَانِ على دعاء مَنْ يمر بهما ، وإن على الركن الأسْوَد مالا يحصى من الملائكة .

وكان مجاهد يقول : الركنان اللذان عند حِجْر إسماعيل لايُسْتَلَمان

وروَى يَعْلَى بن أمية قال : طفتُ بالبيت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،فاستلمنا الركن الأسْوَدَ ، قال يعلى : فلما حاذَيْنَا الركن الشامى مَدَدْتُ يدى لأستلمه ، فقال لى عمر : ما شأنُكَ ؟ فقلت : ألا تستلم ؟ فقال : ألم تَطُفْ مع النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قلت : بلىٰ ، قال : أفرأيته يستلم هذين الركنين الغربيّيْن ؟ قال : قلت : لا ، قال : أفليس لك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ؟ قلت : بلى ، قال : فأبعد عنه

وروى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب أن أباه عبدَ الله بن عمر كان لايَدَعُ مَسَّ الركن الأسود واليمانى إذا طاف فى حج أو عمرة ، وأنه لم يرَه يمسُّ الركنين الآخرين .

وإنما ترك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والمسلمون فى عصره وعصر الخلفاء الراشدين ومَنْ وَلِيهم استلامَ الركنين الآخرين اللذين عند حِجْرِ إسماعيل لأنهما لم يكونا ركنين فى بناء إبراهيم الخليل صلوات الله

وسلامه عليه ، وإنما كان مكانُهما فى وَسَط بناء الكعبة المعظمة ، وهذا ظاهرٌ لا يرتاب فيه أحد بعد الذى ذكرناه مراراً من أمر بناء الكعبة .

فلما بَنَى عبدُ الله بن الزبير الكعبةَ على قواعد إبراهيم كان يستلم الأركان الأربعة كلها ، وكان يقول : إنما تُرِكَ استلامُ الركنين الغربيين (يريد فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وزمن الخلفاء الراشدين) لأنهما لم يكونا على قواعد إبراهيم ، أما الآنَ فهما على قواعده .

فلما أعادَ الحَجَّاجُ بناءَ الكعبة إلى ما كانت عليه فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم عاد المسلمون إلى ما كان عليه إخوانُهم من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ ، واستقر الأمْرُ على ذلك إلى اليوم .

هذا ، ومما ينبغى التنبه له فى هذا الموضع أن سنة استلام الركنين الأسود واليمانى مما يختص به الرجالُ ؛ فأما النساء فإن الدين الإلهى الحريصَ على سلامتهن وعلى سَتْرهن لم يجعل استلامَ الركنين ولا أحَدِهما سنةً فى حقهنَّ ، واكتفى منهن بأن تشير إحداهن بيدها من بعيد لئلا يزحمها الرجال

وقد رَوَى عطاء أن امرأة قالت لعائشة أم المؤمنين وهى تطوف معها : انطلقى يا أم المؤمنين فاستَلِمِى ، فجَذَبَتْهَا عائشة رضى الله عنها وقالت : انطلقى عنا ، وأَبَتْ أن تستلم

ورُوِى أن عطاء بن أبى رَباح كان يطوف ، فرأى امرأة تريد أن تستلم الركن ، فصاح بها وزَجَرها ، وقال : غطى يدَيك ، لاحَقَّ للنساء فى استلام الركن .

وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو هريرة وأبو سعيد الخُدْرى وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس — وكلهم من خيار أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم — إذا استلموا الحجر الأسود بأيدهم قَبَّلُوا أيديَهُمْ .

وكان عطاء بن أبى رَبَاح وعكرمة بن خالد وابن أبى مليكة يستلمون الركن الأسود والركن اليمانى ، و يقبلون أيديهم ، و يمسحون بها وجوههم ، وكانوا ربما استلموا ولا يمسحون بها أفواههم ولا وجوههم .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا طاف على راحلته يستلم الركن بِمِحْجَنِهِ (والمِحْجَنُ : عَصًا طَرَفُها مُعْوَج) ثم يُقَبل طرف المحجن .

مَقَامُ إبراهيم

قال الله تعالى : (إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْرَاهِيمَ)

وقال الله تعالى : (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)

قد عرفْتَ مما قدمناه لك أن الله تعالى أمر إبراهيمَ الخليلَ عليه الصلاة والسلام — بعد أن أتمَّ بناء الكعبة — أن يؤذِّنَ في الناس بالحج ، وأن إبراهيم قال : يا ربِّ وما يبلغ صوتي ؟ يريد وكيف أُسْمِعُ الناسَ ؟ فأجابه الله : إن عليك الأذان وعلينا البَلاَغ ! وأن إبراهيم قام فقال : يأيها الناسُ إن الله كتب عليكم الحج فَحُجُّوا ، يأيها الناسُ أجيبوا ربكم ، وأن الناسَ أجابوه من مختلف بقاع الأرض الأحياء منهم ومَنْ لم يخرج من صُلْب آبائه : لَبَّيْكَ اللهم لبيك ، وأن كلَّ مَنْ يَحُجَ البيت الحرام إلى يوم القيامة هو مِمَّنْ استجاب لإبراهيمَ عليه السلام ، وأنهم يحجون على قدر استجابتهم له ، فمن يحج مرتين فقد كان استجاب لإبراهيم مرتين ، ومن يحج ثلاث مراتٍ فقد كان استجاب لإبراهيم ثلاث مرات ، وهكذا .

وقد اختلف العلماء في مقام إبراهيم ؛ فمنهم مَنْ يذهب إلى أن المراد بمقام إبراهيم جميعُ مَشَاعِرِ الحج ، ومنهم من يذهب إلى أن مَقَامَ إبراهيم هو عرفة

والمزدلفة والجمار ، وكلا هذين الرأيين لا يوافق قوله تعالى (فيه آيات بينات) فإن هذه الآية الكريمة تشير إلى أن مقام إبراهيم موجود فى البيت الحرام ولاشك أن شيئا مما ذكره هؤلاء ليس موجودا فى البيت الحرام نفسه

ومن العلماء من قال: إن مَقام إبراهيم هو الْحَجَرُ الذى وقف عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليؤذن في الناس بالحج امتثالاً لأمر ربه ، وإنه يروى أنه عليه السلام وقف على المقام يومئذ ، فارتفع به المقامُ حتى صار أعلى من أطول جبال العالَم ، وأنه أشرف على كل ما تحته ثم نادى بالحج ، وأنه لما فرغ من النداء نزل به الحجر فعاد كما كان ، فأمره الله تعالى أن يضعه قبلةً له ، فكان يصلى إليه مستقبل الباب ، ثم كان إسماعيلُ ابنه عليه السلام يُصَلى إليه ، فلما بعث الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أمره بالتوجُّه إلى بيت المقدس ، ثم أمره بأن يتوجه إلى الكعبة ، وكان صلى الله عليه وسلم يصلى إلى مقام إبراهيم ما أقام بمكة

ويقال: إن مقام إبراهيم حَجَر كان يقف عليه إبراهيم وهو يبنى الكعبة — عند ما ارتفع البنيان — وإنه كان ينقله من مكان إلى مكان ويقف عليه حتى انتهى من البناء

وقد كان إبراهيم وضع هذا الحجر — حين وضعه بعد تمام البناء — فى موضعه أمام الباب المعروف اليوم بباب بنى شيبة ، وكانت السيولُ ربما دخلت المسجد الحرام من باب بنى شيبة هذا ؛ فكانت ربما زحزحت المقام

عن موضعه ، وربما نقلته إلى وَجْه الكعبة ، وحَدَث أن جاء سيل شديد في زمن خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فاحتمل هذا السيلُ المقامَ فنقله بعيداً عن مكانه ، فأتى به القوم فربطوه فى أستار الكعبة ، ثم كتبوا إلى عمر رضى الله عنه ، فأقبل عمر — أثابه الله! — فَزِعاً ، فدخل مكة معتمراً فى شهر رمضان ، وبحث فوجد السيل قد أخفى موضع المقام ، فدعا الناسَ وقال : أنشُدُ اللهَ عبداً عنده علم فى هذا المقام إلا أخبرنى به ، فقام المطلبُ بن أبى وَدَاعةَ السهمى فقال : أنا يا أمير المؤمنين عندى ذلك؛ فقد كنت أخشى عليه هذا ، فأخذت قَدره من موضعه إلى الركن ، ومن موضعه إلى باب الحجر ، ومن موضعه إلى زمزم ، بمقياسٍ ، وهو عندى فى البيت ، فقال له عمر : فاجلس عندى ، وأمر فأرسل إلى بيته فأتى بالمقياس ، ثم سأل الناسَ وشاورهم ، فقالوا : نعم هذا موضعه ، فلما استثبت عمر من ذلك وتأكد عنده أمَرَ به فبنى له بناء وحَصَّنه ثم وضعه فوقه ، والموضع الذى وضعه فيه عمر هو موضعه فى الجاهلية ، وهو موضعه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو موضعه فى عهد أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، لم يتغير موضعه قط

ويروى أن عبد الله بن السائب — وكان هو الذى يصلى بأهل مكة — قال : أنا أولُ مَنْ صلى خلف المقام حين رُدَّ فى موضعه هذا ، وقد دخل علىَّ عمرُ بن الخطاب وأنا فى صلاة المغرب خلف المقام فصلَّى خلفى ، فلما قضينا الصلاة قال لى عمر : أحْسَنْتَ .

فلما كان فى خلافة أمير المؤمنين المهدى العباسى خشى المسلمون على المقام أن يتفتت ، فكتبوا فى ذلك إلى المهدىِّ ، فبعث إليهم بألف دينار وأمرهم أن يَسْبِكُوها ويربطوا بها المقامَ من أعلاه ومن أسفله .

ثم لما ولى الخلافة أمير المؤمنين جعفرٌ المتوكلُ على الله العباسى أمر فجُعِلَ عليه ذهبٌ فوق ذلك الذهب ، وذلك فى سنة ست وثلاثين ومائتين من الهجرة .

وهذا المقامُ حَجَرٌ مساحَةُ أعلاه أربع عشرة إصبعا فى أربع عشرة إصبعا ، ومساحة أسفله مثلُ ذلك ، وفى أعلاه طوق من الذهب يحيط به ، وفى أسفله طوق آخر من الذهب ، وما بين الطوقين من الحجر بلا ذهب ، وهذا الذهب هو الذى ذكرنا أنه عُمِلَ له فى عهد المهدى العباسى وفى عهد المتوكل ، وقدَمَا إبراهيم داخلتان فى الحجر ، وبين القدمين إصبعان ، وقد جعل المقامُ فى حوض من خشب الساج وحوله رصاص قد لُبِّسَ به ، وعلى المقام صندوق من خشب الساج .

المُلتزَم

روى عن مُجاهدٍ أنه قال : ما بين الحجَر الأسود وباب الكعبة يُسَمَّى الملتزَم ، ولا يقوم عبدٌ هناك فيَدْعو الله عزوجل بشيء إلا استجاب الله له .

وروى أن عبدالله بن عمر وقَفَ بَيْنَ الركن الأسود والباب ، ثم وضع صَدْرَه ووَجْهَه وذِرَاعَيْه وكفّيْه بَسْطاً ، وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل .

ويُرْوَى أن آدمَ أبا البشر عليه الصلاة والسلام حين أراد الطواف بالبيت : طاف سبعة أشواط ، ثم صلى تُجَاهَ باب الكعبة ركعتين ، ثم أتى الملتزَمَ فقال : اللهم إنك تعلم سَرِيرَتى وعَلاَنيتى فاقْبَلْ مَعْذِرَتِى ، وتعلمُ ما فى نفسى وما عندى فاغفرلى ذنوبى ، وتعلم حاجتى فأعْطِنِى سُؤْلى ، اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ، ويقيناً صادقاً حتى أعْلَمَ أنه لن يُصِيبَنى إلا ما كتبت لى ، والرضا بما قَضَيْتَ على .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى آدم بعد أن دعا بهذا الدعاء : يا آدمُ قد دعَوْتَنِى بدعوات ، واسْتَجَبْتُ لك ، ولن يدعوَنى بها أحد من وَلَدِك إلا كشفت همومَه وغمومَه ، وكفَفْتُ عليه ضَيْعَته ، ونزعْتُ الفقر من قلبه ، وجعلت الغِنَى بين عينيه ، وتَجَرْتُ له من وراء تجارة كل تاجر ، وأتته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها .

زمـــزم

يُرْوَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَاشُرِبَ لَهُ»

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « التَّضَلُّعُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ بَرَاءَةٌ مِنَ النفَاقِ »

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « عَلاَمَةُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ أَنْ يُدْلُوا دَلْوًا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ فيتضلَّعُوا منها ، ما اسْتَطَاعَ مُنَافِقٌ قَطُّ أَنْ يَتَضَلَّعَ مِنْهَا »

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى سُهَيل بن عمرو يَسْتَهْدِيهِ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ، فبعث إليه براويتين (الراوية : القربة) .

ويروى أن مجاهداً رضى الله تعالى عنه كان يقول : مَاءُ زَمْزَمَ لِمَاشُرِبَ له ؛ إنْ شَرِبْتَهَ تُرِيدُ شفاءً شفاكَ الله ، وإن شَرِبْتَه لظمأ أَرْوَاكَ الله ، وَإِنْ شَرِبْتَه لجُوعٍ أَشْبَعَكَ اللهُ

وروى أن وهب بن مُنَبه قدم مكةَ ، فمرض ، فجاءه قومٌ يَعُودونه فوجَدُوا عنده ماءً من ماء زمزم ، فقالوا له : لو شربت ماءً عذباً فإن هذا الماء فيه غلظ ، فقال لهم : ما أريد أن أشرب حتى أخرج من مكة غيرَ هذا الماء ، والذى نفسى بيده إنها لفى كتاب الله زمزم ، لاتنزف ولاتذم ، وإنها لفى كتاب الله بَرَّة شراب الأبرار ، وإنها لفى كتاب الله مضنونة ، وإنها لفى

كتاب الله طعام مَنْ طَعِم وشفاء مَن سَقِم ، والذى نفسُ وَهبٍ بيده لا يَعْمِدُ إليها أحد فيشرب منها حتى يتضلع إلا نَزعَتْ منه داءً ، وأحدثت له شِفاءً .

وقد رَوَى ابنُ عباس رضى الله تعالى عنهما أن إبراهيم خليل الرحمن قدم بابنه إسماعيل وهو رضيع و بأمه فوضعهما فى مكة عند المسجد الحرام ثم توجه يريد العودة إلى بلاده ، فقالت له أم إسماعيل : إلى مَنْ تتركنا ؟ فقال : إلى الله عزوجل ! فقالت : قد رضيت بالله عزوجل ، فذلك قول الله تعالى : (رَبَّنَا إنى أسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيتِي بِوَادٍ غيرِ ذى زرع عِنْدَ بيتِكَ المحرَّمِ) قال : فرجعت أم إسماعيل تحمل ابنها حتى قعدت فى المكان الذى اختاره لها إبراهيمُ ، ووضعت ابنها إلى جنبها ، وعَلَّقت مَزَادة كانت معها فيها ماء تشرب منه ، حتى إذا فَنِيَ الماء انقطع لبنها ، فجاع ابنها ، واشتد جوعُه ، فخشيت عليه أن يموت ، فأحزنها ذلك ، قال ابن عباسٍ : فقالت أم إسماعيل فى نفسها : أذهَبُ بعيداً عنه حتى إذا مات من الجوع لا أراه ، فعمدت إلى الصفا حين رأته عالياً فصعدت عليه لعلها ترى أحداً ، ثُمَّ نظرت إلى المروة فقالت : أمشى بين هذين الجبلين أعلل نفسى حتى يموت الصبى وأنا لا أراه ، فمشت بينهما ثلاث مرات أو أربع مرات ، ثم رجعت إلى ابنها فوجدته كما تركته ، فأحزنها ، فعادت إلى الصفا تعلل نفسها كما كانت ، فمشت كما مشت أول مرة ، ثم رجعت تُطَالع ابنها ، فرأته كما تركته ، ثم سمعت صوتا ، ولم ترأحدا ، فقالت : إنى أسمع صوتك فأغثنى إن كان عندك خير ، فخرج لها جبريل عليه السلام ، فاتبعته حتى ضرب برجله مكان

البئر ، فظهر ماء فوق الأرض حيث ضرب جبريلُ بقدمه ، فأرادت أن تَحُوطَه بتراب خشيَةَ أن يفوتها قبل أن تأتى بمَزَادَتها لتملأها ، ثم جاءت بها فاستقت وشربت فدرَّ لبنُها على ابنها .

وأراد الله تعالى أن يستجيب دعاء خليله إبراهيم حيث يقول : (فاجْعَل أفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إليهِمْ) فبينا أمُّ إسماعيل على حالها إذ مَرَّ بها ركب من جُرْهم كانوا عائدين من الشام ، فرأوا طيراً على الماء ، فقال بعضهم لبعضٍ: لم نَعْهَد فى هذا الوادى ماءً ولا أنيساً ، ثم اتفقوا على أن يَطَّلع جماعة منهم الخبر ، فرجع إليهم الرسُلُ يخبرونهم بما وجَدوا ، فجاء الركبُ إلى أم إسماعيل فحيَّوها وسألوها : لمن هذا الماء ؟ فقالت : هُوَ لى ، فقالوا : أتأذنين أن نسكن معك؟ فقالت : نعم ، فنزلوا فى جوارها ، و بَعَثُوا إلى أهلهم فقدموا عليهم وسكنوا معهم ، و بقيت جُرْهُمُ على هذا ماشاءالله أن تبقى ، ثم طغَوْا و بغَوْا ، واستخفوا بالحرم ، واستهانوا بحرمة البقعة المباركة ، فأنضَبَ الله تعالى ماء زمزم وقطع مادَّتَهُ ، وسَلَّط الله تعالى خزاعة على جُرْهم فأخرجتهم من الحرم ، ووليت هى الحكمَ بمكة ، ولم تعرف خزاعة موضع زمزم لأن تقادم الزمن عليها كان قد أخْفَى موضعها

وفى عام الفيل ــ وذلك قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل ــ خرجت قريش فارَّةً من صاحب الفيل ، وكان عبد المطلب بن هاشم جدُّ النبى صلى الله عليه وسلم يومذاك غلاما شابا ، فلم يفر مع مَنْ فر من قريش

وقال : والله لا أخرج من حرم الله أبتغي العز في غيره ، ولم يزل مقيما عند الحرم حتى أهلك الله الفيلَ وأصحابَه ، فرجعت قريش إلى مساكنها ، وقد عَظُمَ شأنُ عبد المطلب بن هاشم في أعينهم لِصَبْرِهِ وتعظيمه حَرَمَ الله عز وجل . وبقي شأنُ عبد المطلب يعظم ومنزلته تكبر والقوم يُجِلُّونه ويُكْبِرونه حتى أتاه آتٍ في المنام فقال له : احْفِرْ زمزم ، خَبِيئة الشيخ الأعظم ، فلم يفهم ما أراد منه . وقال : اللهم بَيِّنْ لي ، فأتاه في المنام مرة أخرى فقال له : احفر زمزم ، بين الفَرْثِ والدم ، عند نقرة الغُراب الأعصم ، فقامَ مضطرب النفس حزيناً ، وأتى بيتَ الله الحرامَ فجلس فيه ، واتفق أن رجلا نَحَرَ بَقَرة بالحزورة فانفلتت البقرة منه ، وأخذت تجرى حتى جاءت المسجدَ فغلبها الموتُ في موضع زمزم ، فجزرت تلك البقرة في مكانها الذى سقطت فيه ، واحتملَ القومُ لحمها ، فأقبل غرابٌ يَهْوِي حتى وقع في فَرْثِ البقرة ، فتذكر عبدُ المطلب ما سمعه في منامه ، فقام من مكانه وأخذ يحفر هناك ، فجاءته قريش فقالت : ما هذا الصنيع ؟ إنا لم نعهدك جَهَّالا ولا سفيها ! كيف تحفر هذا المسجد ؟ فقال : دَعُونى يا قوم ، فإنى لَحَافِر ، وإنى لمجاهِدٌ مَنْ صَدَّنى ، فنازعه ناس من قريش ، وتَنَاهى عنه آخرون منهم ، ودافع عنه قوم لما يعلمون من عِتْقِ نسبه وصدقه واجتهاده في دينهم ، وما زال يحفر حتى وَجَد سُيوفاً كانت جرهم قد دفنتها في زمزم ، فلما رأت قريش هذه السيوف قالوا : أجِزْنا ياعبدَ المطلب مما وجدت ، فقال عبد المطلب : هذه السيوف

لبيت الله الحرام ، وأخذ يحفر هو وابنُه حتى أنبَطَ الماءَ ، و بنى عليه حوضاً، وكان يملأ الحوض ويَسْقِي الناسَ منه . فحسده ناسٌ من قريش فكانوا يكسرون الحوض بالليل، فإذا أصبح أصلحه ، فلما أكثروا من ذلك دعا ربه ، فأرى فى النوم قائلا يقول له : « قل : اللهم إنى لا أحلها لمغتسل ، ولكن هى للشارب حِلٌّ و بِلٌّ » فقام عبدُ المطلب فنادَى فى المسجد بما رآه فى منامه ، ثم انصرف ، فلم يكن أحد يُفْسِدُ عليه ذلك الحوض إلا رماه الله فى جسده بداءٍ ، فخافته قريش ، وتحامَوْا أن يؤذوه ، وتركوا له حوضه وسقايته

وما زالت سقاية الحاج من بئر زمزم فى أيدى بنى عبد المطلب بن هاشم حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أتى زمزم فدَعا بسَجْل من مائها فتوضأ به ثم قال: « أنْزِعُوا يا بنى عبد المطلب ، فلولا أن تغلَبُوا عليها لنَزَعْتُ معكم » يريد صلوات الله وسلامه عليه أن بنى عبد المطلب هم الذين يُخْرِجون الماء من البئر و يُعْطونه للحاج ليشرب منه ، وأنه خشى إذا أخذ الدلو وأخرج الماء بنفسه لنفسه أن يتخذ الناسُ إخراجَ الماء بأنفسهم سُنَّةً فيغلبوا ذرية عبد المطلب على ما هو من شأنهم خاصة ، هذا مع كونه صلى الله عليه وسلم من ذرية عبد المطلب بن هاشم ، وذلك لأن المسلمين بعده صلى الله عليه وسلم يأتَسُونَ بما يفعل

ومن أجل ذلك أذِن النبيُّ صلى الله عليه وسلم للعباس بن عبد المطلب ابن هاشم أن يَبِيتَ بمكة فى ليالى مِنًى ؛ ليكون بجوار زمزم ، وليكون

هو وأهله الذين يخرجون ماء زمزم للناس : فكانوا يبيتون بمكة حتى إذا جاء موعد رمْيِ الجمار انطلقوا فرَمَوْا ثم عادوا إلى مكة فباتوا بها .

وبئر زمزم تقع جنوبيَّ مقام إبراهيم ، بحيث إن الزاوية الشمالية الغربية من البناء القائم على البئر مُحَاذِية للحجَر الأسود على بُعْدِ ثمانيةَ عشَر متراً منه ، والبناء القائم عليها مربع من الداخل ، طول ضلعه خمسة أمتار وربع متر ، وهو مفروش بالرخام ، وهـذا البناء طبقتان : فى الأولى منهما خَدَمُ البئر ، ويُصْعَد إلى الثانية على سُلَّم من الخشب .

وكان أول من عملَ الرخام على زمزم والشباكَ وفَرَشَ أرضَها بالرخام أميرُ المؤمنين أبو جعفر المنصور الخليفةُ العباسى الثانى . ثم جَدَّدها أمير المؤمنين المهـدى العباسى ، ثم عمره عُمَر بن فرج فى أيام خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله العباسى فى سنة ٢٢٠ من الهجرة فسقف زمزم كلها بخشب الساج المُذَهَّبِ . وجعل فى دائر جناح السقف سلاسِلَ فيها قناديلُ يستضىء بها الناسُ فى الموسم ، ومازال الأمراء والسلاطين والملوك يتولونها بالعمارة والتجديد حتى صارت إلى ما هى عليه الآن ، وآخر عمارة حدثت فى بيت زمزم كانت فى عهد السلطان عبدالحميد الأول العثمانى ، وذلك فى سنة ١٢٠١ من الهجرة .

وفى شَرْقِىِّ الكعبة من جنوبىِّ بئر زمزم حُجْرَة كبيرةٌ ذاتُ نَوافِذَ وسَقْفُها بارز عن جُدُرها ، وإنما صُنع هذا السقف على هذا الشكل ليستظل

الناسُ به ، وهذه الحجرة تسمى « سِقَايَةَ العبَّاسِ » وقد كان العباسُ بن عبد المطلب عمُّ النبى صلى الله عليه وسلم يَسْقى فى هذه الحجرة حُجَّاج بيت الله الحرام ، وقد ذكروا أن بين هذه الحجرة والحجَرِ الأسود ثمانين ذراعا .

والحجاجُ فى هـذا الزمان يأخذون من ماء زمزم فى صفائح أو أوْعِيَةٍ زجاجية ليُهْدُوهُ إلى أهليهم وأصدقائهم ، ومنهم من يجىء بنَسيجٍ أبْيَضَ ثم يغسله بماء زمزم ويُجَففه فى أرض الحرَم ، ثم يحفظه عنده ، ويُوصِى أن يكَفَّنَ فيه إذامات

وليس فى نَقْل هذا الماء إلى البِلَاد لإهدائه للأهل والأَصدقاء يشربونه أو يتداوَوْن به شُرْباً أوسَكْباًمانِعٌ شرعى ، بل هوسُنَّة ، فَعَلَ ذلك النبىُّ صلى الله عليه وسلم ــ وهو المُقْتَدى به والأسْوَةُ الحَسَنَةُ ــ فقد رَوَيْنَا لك فى صَدْرِ هذاالبحث أنه ــ صلى الله عليه وسلم !ــ أرسلإلى سُهَيل بن عمرو يطلبُ منه أن يُهْدى إليه من ماء زمزم ، وأن سُهَيل بن عمرو أرْسَلَ إليه صلى الله عليه وسلم قربتين مملوءتين من ذلك الماء ، وقدمنا أنه صلى الله عليه وسلم قال « ماء زمزم لما شرب له » . اللهم اجعلنا ممن يملأ جوفه من هذا الماء ويتضلع منه ، آمين .

المسجد الحرام

يقع المسجد الحرام فى وسط مكة ، وفى وسط المسجد تقع الكعبة المعظمة بما فيها وما حولها من المشاهد الذى ذكرناها فيما مضى ، والضِّلَع الشمالية للمسجد ــ وهى المقابلة للحَطِيم ــ طولها من الداخل أربعة وستون مترا ومائة متر (١٦٤ مترا) والضِّلَع الجنوبية المقابلة للضلع الأولى طولها من الداخل ستة وستون مترا ومائة متر (١٦٦ مترا) والضِّلَعُ الشرقية ــ وهى التى فيها بابُ السلام ــ طولها من الداخل ثمانية أمتار ومائة متر (١٠٨ متر) والضلَع الغربية المقابلة السابقة طولها من الداخل تسعة أمتار ومائة متر (١٠٩ مترا) فيكون سطح المسجد من الداخل سبعة عشر ألف متر وتسعمائة متر واثنان (١٧٩٠٢ مترا) وهو ما يقرب من أربعة أفدنة وربع فدان . وأما من خارج المسجد فمتوسِّطُ طوله اثنان وتسعون مترا ومائة متر (١٩٢ مترا) ومتوسط عرضه اثنان وثلاثون مترا ومائة متر (١٣٢ مترا)

ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع ثلاثة أروقة[1] فى الأكثر ، يفصل بين كل رواقٍ والآخر صف من الأعمدة يوازى جدارَ المسجد ، وقد وُصِل بين كل عمودين بعَقْدٍ مَتِينٍ من البناء ، ثم أقيم على كل أربعة أعمدة قبة محكمة البناء ؛ فنشأ من ذلك قباب متجاورة يتكوّن منها سقفُ هذه الأروقةِ ،

---

(١) المراد بالرواق البائكة

وعدد العقود فى الجهة الشمالية ما بين الجدارين الشرقى والغربى اثنان وأربعون عقدا فى كل صف على استقامة واحدة ، وعدد العقود فى الجهة الجنوبية طولاً أربعون عقدا فى أطول صف ما بين الجدار الشرقى والجدار الغربى ، وعددُ العقود فى هذه الجهة عرضا فى الطرفين ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة وذلك فى الوسط فأما فى الطرف فاثنان وواحد ، وعَدَدُ العقود فى الجهة الشرقية طولا بطول الصحن فقط أربعة وعشرون عقدا فى كل صف وعرضا ثلاثة ثلاثة ، إلا فى الطرف الجنوبى فاثنان ، وذلك بسبب انحراف الجدار فى هذه الناحية ، وعدد العقود فى الجهة الغربية طولا بطول الصحن أربعة وعشرون عقدا فى كل صف ، وعرضا أربعة أربعة فى الأعم الأغلب وفى بعضها ثلاثة ثلاثة ، وفى الجهة الشمالية فى مدخل الباب المسمَّى باب الزياة عقود أخرى ، وكذلك فى الجهة الغربية فى مدخل الباب المسمى باب إبراهيم ، وجملة الأعمدة التى أقيمت عليها هذه العقود خمسة وأربعون وخمسمائة عمود (٥٤٥) منها (٣٠١) واحد وثلثمائة عمود من الرخام والباقى وهو أربعة وأربعون ومائتا عمود (٢٤٤) من الحجر الأحمر ، وقد وضع بين كل عمودين قناديل كبار توضع فيها المصابيح ، كما وضع فى صُرَّة كل قبة قنديل ، وما عدا هذه الأروقة من المسجد صحن واسع تقع الكعبة المعظمة فى وسطه .

وقد أُحيط بالكعبة المَطَافُ ، ورُصف بالرخام ، وأُقيم حوله صف من الأعمدة اتُّخِذَتْ من نحاسٍ أصفر ، ووُصِل بين هذه الأعمدة بعوارض من الحديد .

وقد أقيم في مُوَاجهة كل ضِلع من ثلاثة أضلاع من أضلاع الكعبة سقيفة على أعمدةٍ من الرخام : أما السقيفة الشمالية – وهي التي خلف حِجْرِ إسماعيل – فذاتُ طبقتين ، وفيها يصلي الإمامُ الحنفي . وأما السقيفة الغربية – وهي التي خلف الضلع الممتد من الركن الشامي إلى الركن اليماني – فيصلي فيها الإمامُ المالكي ، وأما السقيفة الجنوبية – وهي في مواجهة الركن الأسود تقريبا – فيصلي فيها إمامُ الحنابلة ، وكلُّ هذه السقائف في خارج المطاف . وأما إمام الشافعية فإنه يصلي : إما شرقيَّ الكعبة خَلْفَ مقام إبراهيم ، وإما في الطابَقِ الثاني من البناء المُقَام على بئر زمزم .

وقد فرش صحن المسجد بالحَصْباء(١) إلا الطرقات التي تصل بين الأبواب والأرْوِقة وإلا المطاف وما يليه من ناحية الكعبة فإنها مرصوفة بحجارة الجص ، والأروقة كذلك مرصوفة بحجارة الجص ، وأرضُ المسجد منخفضة عن الأرض المحيطة به بنحو ثلاثة أمتار ، ويُصْعَدُ من أرضه إلى الأبواب الشارعة في الطريق بسَلالِمَ ، والبيت المعظم منحدر عن أرض المسجد انحدارا تدريجيا بما يقرب من المتر .

وللمسجد الحرام خمسة وعشرون بابا بعضُها صغيرٌ وبعضُها كبيرٌ ، فأما الأبواب الصغيرة فستة أبواب ، وأما الأبواب الكبيرة فتسعة عشر بابا ، ويقع من مجموع هذه الأبواب في الجهة الشمالية من المسجد ثمانيةُ أبوابٍ ،

---

(١) الحصباء : صغار الحصى

وفى الجهة الجنوبية سبعةُ أبوابٍ ، وفى كل من الجهتين الشرقية والغربية خمسةُ أبوابٍ .

فأما الأبواب التى فى الجهة الجنوبية فهى : باب بازان (ويقال له : باب بنى عائذ ، وقد يقال له : باب القَرَهْ قول) وباب بنى سفيان (ويقال له : باب البغلة) ، وباب الصفا ، وباب إجياد الصغير (ويسمى فى بعض الكتب : باب بنى مخزوم) وباب المجاهدية (ويقال له : باب الرحمة) وباب بنى تَيْمٍ (ويقال له : باب مدرسة الشريف عجلان) وباب أم هانى بنت أبى طالب أخت أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ويقال له أيضاً : باب الملاعبة ، كما يقال له : باب الفرج ، وكما يقال له : باب الحميدية) .

وأما الأبواب التى فى الجهة الغربية من المسجد فهى : باب الحَزْوَرَة (ويقال له : باب بنى حكيم بن خزام ، ويقال له أيضاً : باب الخزامية ، ويقال له أيضاً ، باب الوَداع) وبابُ إبراهيم (وهذا الباب أكبر أبواب المسجد ، وليس إبراهيم الذى نُسِب إليه هـذا الباب هو إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، ولـكنه رجل خياط كان يجلس عند هذا الباب ، فَنَسبه العوامُّ إليه) وباب مدرسة الشريف عبدالمطلب ، وبابُ الدَّاوُدِيَّة ، وكلاهما باب صغير ، وبابُ العمرة ، وسُمِّى هذا الباب بهذا الاسم لأن الذين يريدون العمرة من التَّنْعِيم يخرجون ويدخلون منه غالبا (ويقال له : بابُ بنى سَهْم) .

وأما الأبواب التى فى الجهة الشمالية من المسجد فهى : باب عمرو ابن العاصِ (و يقال له : باب السَّدَّة ، و يقال له أيضاً : الباب العتيق) و باب الزمامية ، و باب العجلة (و يقال له : باب الباسطية) و باب القطبى (و يقال له : باب الزيادة) و باب سويقة (وهو الذى يقال الآن : باب الزيادة) و باب المحكمة ، و باب الكتبخانة (و يقال له : باب المدرسة) و باب دريبة .

وأما الأبواب التى فى الجهة الشرقية فهى : باب السَّلَام (و يعرف بباب بنى شَيْبَةَ ، وقد يقال له : باب بنى عبد شمس) وهذا الباب هو الباب الذى يدخل منه الحُجَّاج ليؤدُّوا طواف القدوم ، و باب قايتباى ، و باب الجنائز ، وقد سمى هذا الباب بهذا الاسم لأن الجنائز تخرج منه فى الغالب إلى مقبرة المعلى ، و يذكر المؤرخون أن هذا الباب هوا الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يخرج منه إلى منزِلِهِ دارِ خديجة بنت خويلد — رضى الله تعالى عنها ! — و يدخل منه إلى المسجد ، و باب العباس بن عبد المطلب (و بعض المؤرخين يسمى هذا الباب : بابَ الجنائز) و باب على (وقد يسمى هذا الباب : باب بنى هاشم ، وقد يقال له : باب البطحاء)

وللمسجد الحرام سبعُ مآذِنَ :

أما المئذنة الأولى ففى ركن المسجد الشمالى الغربِيِّ عند باب العمرة ، وقد بنى هذه المئذنة أميرُ المؤمنين أبو جعفرٍ المنصورُ فى سنة ١٣٩ من الهجرة

وجُدِّدت بعده مرارا ، إلى أن أمر السلطان سليمان العثمانى فى سنة ٩٣١ بهَدْمها و إعادة بنائها .

وأما المئذنة الثانية فموقعها عند باب السلام ، والذى أمر بعمارتها أمير المؤمنين المهدى العباسى فى سنة ١٦٨ من الهجرة .

وأما المئذنة الثالثة فموقعها عند باب على ، وهى مما أمر بعمارته أميرُ المؤمنين المهدىُّ ، وقد جَدَّدها السلطانُ سليمانُ العثمانى .

وأما المئذنة الرابعة فموقعها عند باب الوَداع ، وهى مما أمر بعمارته أمير المؤمنين المهدىُّ ، وقد سقط بناؤه فى سنة ٧٧١ من الهجرة ؛ فأمر الأشرف شعبان بتعميرها فى السنة التى بعدها .

وأما المئذنة الخامسة فموقعها عند باب الزيادة ، وقد أمر بعمارتها أمير المؤمنين المعتضد العباسى فى سنة ٢٨٤ من الهجرة عند ما بنى الزيادة ، ثم أمير بتجديدها الأشرفُ برسباى فى سنة ٨٢٦ من الهجرة .

وأما المئذنة السادسة فهى مجاورة لباب السَّلام على يَسَار الداخل إلى المسجد ، وقد أمر بعمارتها السلطان قايتباى بمدرسته المعروفة باسمه ، وذلك فى سنة ٨٨٠ من الهجرة .

وأما المئذنة السابعة فموقعها فى المدرسة السليمانية .

وكل هذه المآذن يُؤَذن عليها فى الأوقات الخمس ، ومِيقَاتِىُّ المسجد

(شيخ المؤذنين) يؤذن على قبة زمزم ، فيتبعه باقى المؤذنين على هذه المآذن .

وقد أهدى رجل مَرَّاكشى إلى الحرم مِزْوَلَةً فى غاية الضبط ونهاية الإحكام ، فوُضِعت هذه المِزْوَلَة فى قبة زمزم ، وعليها يجرى توقيتُ الميقاتى .

عمارة المسجد الحرام

لم يكن المسجد الحرام - حين بَنَى الكعبةَ إبراهيم خليل الرحمن - بهذا الاتساع الذى ذكرنا حدوده فى كلامنا الماضى ، بل إنه لم يكن بهذا الاتساع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولا فى عهد خلافة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، بل يصح أن نقول : إنه لم يكن هناك مسجد منذ عهد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام !- إلى آخر عهد أبى بكرٍ صِدِّيقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان منذ بنى إبراهيم الخليلُ الكعبةَ إلى أن ولى الخلافةَ عمرُ بْنُ الخطاب - رضى الله تعالى عنه !- أرْضاً بَرَاحا ليس له جدار يُحِيطُ به ، فلما بنى الناسُ الدورَ جعلوها مُحْدِقَةً به من كل جانب ، وتركوا بين الدور أزِقَّة يدخل الناسُ إلى المسجد منها ، وكانت مساحته تنتهى عند آخر المَطَاف الآن .

فلما اسْتُخْلِفَ عمرُ بن الخطاب اشترى دوراً من الدور التى حول المسجد وهَدَمها وأضافها إلى المسجد ؛ وكان قوم من أصحاب هذه الدور قد أبَوْا أن يبيعوها فقوَّمَها عمرُ رضى الله عنه ، فامتنعوا عن قبض أثمانها ، فوضعت أثمانها فى خزانة الكعبة ، وهَدَم عمر دورهم وقال لهم (1) : لقد نزلتم أنتم على الكعبة

---

(١) هذا أصل عظيم فى نزع الملكية قهرا للمنافع العامة

ولم تنزل الكعبة عليكم ، فهذه الدور فناء الكعبة ، وجعل عمرُ للمسجد جدارا قصيرا يُحِيطُ به ، و بعد قليلٍ أخذ القوْمُ أثمان دورهم ، وكان ذلك فى سنة ١٧ من الهجرة .

وفى عهد عثمان بن عفان — رضى الله تعالى عنه !— ضاق المسجدُ بالناس فأراد أن يوسع المسجدَ ، فاسْتَامَ الدور التى حَوْله ، فباعه قوم دورهم وأبى آخرون ، فهدَم دور مَنْ رضى ومَنْ لم يرض ، فصاحوا به ، فدعاهم إليه وقال لهم : إنما جرّأكم علىّ حلمى عنكم ، فقد فعل عمر بن الخطاب ذلك فلم يَصِحْ به أحد ، فاحتذيت مثاله فصحتم بى ، ثم أمر بهم إلى الحبس ، فما زالوا فيه حتى كلّمه فى شأنهم عبدُ الله بن خالد بن أسيد فتركهم . وكان ذلك فى سنة ٢٦ من الهجرة .

فلما كان زمَنُ عبد الله بن الزبير اشترى دورا من الناس وأدخلها فى المسجد ، وذلك فى سنة ٦٤ من الهجرة .

ثم عمَّره عبدُ الملك بن مروان ، فرفَع جدرانه ، وسقَف بعضَه بخشب الساج ، ولكنه لم يزد فيه شيئاً .

فلما كانت سنة ٨٩ من الهجرة فى عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان — وكان الوليد إذا عمر المساجد زَخْرَفها — نقضَ الوليدُ عَمل عبد الملك ، وعمله هو عملاً محكما ، ونقل إليه أساطِينَ [١] الرخام من داخل ، وجعل للمسجد شرافات .

(١) الأساطين : الأعمدة ، واحدها أسطوانة

فلما كان عهد أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين أمر فزيد فى المسجد من جانبيه الشمالى والغربى ، وجعل فيما وسَّعه من كل جانب رِوَاقاً (الرواق ما نسميه **اليوم** باكية) ، وقد بلغت مساحة المسجد بعد زيادة أبى جعفر المنصور ضِعْفَ ما كانت عليه قبلَ هذه الزيادة ، وقد بدأ فى عمارته فى شهر الله المحرم افتتاح سنة ١٣٧ من الهجرة ، ورفعت الأيدى عنه ـ بعد تمام ما أراد ـ فى شهر ذى الحجة الحرام من سنة ١٤٠ من الهجرة .

وفى سنة ١٦١ من الهجرة حج أميرُ المؤمنين المهدىُّ العباسيُّ ، وأمر بعمارة المسجد ، وأن يزاد فى أعلاه ، ومن الجانب اليمانى ، وأن يزاد من الموضع الذى انتهى إليه أبوه المنصور من الجانب الغربى ، ويشترى ما كان فى ذلك الموضع من الدور ، أمر بذلك قاضى مكة يومئذٍ محمدَ بن عبدالرحمن بن هشام المخزومى ، فاشترى الدور بأثمان عالية حتى بلغ ثمن الذراع المربع خمسة وعشرين دينارا ، واشترى جميعَ ما كان بين المَسْعَى والمسجد من الدور ، وهدمها ، وجعل المسجدَ شارعا على المسعى ، وكان أبو جعفر قد جعل فى المسجد من الظلال طاقا واحداً وهو الطاق الأول مما يَلِى جُدُرَ المسجد ، فأمر المهدى بأساطين الرخام فنقلت من الشام ، وجعل فى أعلى المسجد ثلاثةَ صفوفٍ

وحج المهدى حجةً ثانية فى سنة ١٦٤ من الهجرة فرأى الكعبة فى شق المسجد ، فأحَبَّ أن تكون الكعبة فى وسطه ، فأمر أن يوسَّع المسجد

من الناحية الأخرى حتى تصبح الكعبة فى وسط المسجد ، وقد ذكر المهندسون بعضَ ما يعترضهم من الصعوبات ، فأصرَّ على ذلك ، وترك المال ليشتروا من الناس دروهم التى تدخل فى ذلك ، وفعل المهندسون ما أمرهم به ، ولكنه لم يتم إلا بعد وفاة المهدى .

وفى عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد عمل عبدُ الله بن محمد بن عمران الطّلحى أميرُ مكة يومئذ مظلّةً للمؤذنين على سطح المسجد ليؤذنوا فيها يوم الجمعة ، وكان المؤذنون قبل ذلك يؤذنون يوم الجمعة على السطح فى العَرَاء .

ولما كانت أيام أمير المؤمنين المقتدر بالله العباسى زِيدَ فى الجهة الغربية من المسجد عند باب إبراهيم قطعة مساحتها ٥٧ ذراعا طولا واثنان وخمسون ذراعا عرضا .

وفى سنة ٦٤١ من الهجرة أجرى الأمير على بن عمر صاحبُ اليمن عمارةً بداخل باب السلام ، ووقف كتبا كثيرة لينتفع بها المدرسون وطلبة العلم وزوار البيت الحرام ؛ فكان هذا الوقف نواةً للمكتبة العظيمة التى فى المسجد الحرام ، وكانت عَوْناً لطلاب العلم المجاوِرين بالحرم .

وفى سنة ٧٨١ من الهجرة أرسل الأمير العثمانى بمصر مملوكه سودون باشا ، فصنع تحلية للباب وللميزاب وبَيَّضَ سطح الكعبة .

وما زال الأمراء يوالون عمارة المسجد الحرام حتى كانت سنة ٩٧٩ من الهجرة ؛ ففى هذا العام صدر أمر السلطان سليم العثمانى ببناء المسجد

الحرام على درجة فائقة من الإتقان ، فأرسل إلى سِنَان باشا والى مصر من قبله وأمره أن يرسل مَنْ يقوم بهذا العمل الجليل ، فأرسل هذا الأمير رجلا مطبوعا على عمل الخير والانصراف عن الدنيا والرغبة الأكيدة فى العطف على المحتاجين واسمه أحمد بك ، فسافرَ هذا إلى مكة فى ذى الحجة من سنة ٩٧٩ ومعه إجازة من السلطان بمباشرة البناء تحت إشراف القاضى حسين ، وبدأ بالهدم والتعمير من باب السلام فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الأول من سنة ٩٨٠ من الهجرة ، وأخذ فى العمل بِجِدٍّ حتى أتم الجهة الشرقية والجهة اليمانية ، ثم أتاه نعيُّ السلطان سليم وتولية ابنه السلطان مراد ، ولم يتوقف السلطان مراد عن إصدار أمره بأن يستمر العملُ فى المسجد الحرام على الخطة السالفة ، وأن تبذل فى هذه العمارة الهمةُ الفائقة والنشاطُ الموفور ، فبذل أحمد بك من ذلك كله ما يضيق عنه الوصفُ حتى أتم بناء المسجد فى آخر سنة ٩٨٤ من الهجرة ، وقد بلغت النفقات فى هذه العمارة خمسة وخمسين ألف جنيه مصرى ذهباً ، سوى ما وصل من مصرٍ من مواد البناء كالخشب والحديد .

والمسجدُ الحرامُ بوضعه الحالى الذى بيناه فيما مضى هو على ما تم من العمارة فى عهد السلطانَيْنِ العثمانيين سليم ومراد ، ولم يحدث بعدهما فيه من التغيير إلا ما عسى أن يكون من ترميم تدعو الحاجة إليه

رحم الله هؤلاء القوم الذين صرفوا عنايتهم إلى المسجد الحرام ، وبذلوا فيه جَهْدَهم وأموالَهم ، توفيراً لراحة زُوَّراه ، ومحافظة على ما يضمه هـذا المسجد من مشاهِدَ هى مَوْضِـع التعظيم والإجلال من جميع المسلمين!!

الصَّفَا والمَرْوة

قال الله تعالى : (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) .

(الآية ١٥٨ من سورة البقرة)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم حين شرع في السعي بين الصفا والمروة « ابْدَأُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ » أي اجعلوا أولَ السعي الصَّفَا ؛ لأنه هو الذي بدأ الله تعالى به في قوله : (إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ فَاسْعَوْا »

ورَوَى أبو هُرَيرةَ ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ أَنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلم « لما فَرَغَ من طَوَافِهِ أَتَى الصَّفَا فعلاَ عليه حتى نظر إلى البيت ، ورَفَع يَدَيْهِ ، فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللهَ وَيَدْعُو مَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَ » .

وروى جابر بن عبد الله ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم لمـا دَنا من الصَّفا قرأ (إنَّ الصَّفا والمروَةَ من شعائر الله) ثم قال : أَبْدَأ بما بَدَأَ الله به ، فبَدَأ بالصفا ، فرقِىَ عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحَّدَ اللهَ و كبره ، وقال : لا إِلٰهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ ، لا شَرِيكَ له ، له الملك وله الحمدُ ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أَنجز وَعْدَهُ ،

ونَصَرعبده ، وهَزَم الأحزاب وحده ، ثم دعا بين ذلك ، فقال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة حتى انصَبَّتْ قدمَاهُ فى بطن الوادى ، حتى إذا صَعَدْنَا مَشَى ، حتى أتى المروَةَ ، ففعل على المروَةِ كما فعل على الصفا » .

وكان ابن عُمَر رضى الله تعالى إذا صَعَد على الصفا استقبل البيتَ الحرامَ وكبر ثم قال : « اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي بِدِينِكَ وطَوَاعِيَتِكَ وطواعية رسولك ، اللهمَّ اجعلنى ممن يحبُّكَ ويحبُّ ملائكتك وعبادَك الصالحين ، اللهمَّ يَسِّرْنِى لليُسْرَى ، وجَنِّبْنِي للعُسْرَى ، واُغْفِرْ لى فى الآخرة والأولى ، واجعلنى من أئمة المتقين [1] ، واجْعلنى من ورثة جنــة النعيم ، واغفرلى خطيئتى يومَ الدين ، اللهم إنك قلت (ادْعُونِى أستجب لــكم) وإنك لا تخلف الميعادَ ، اللهمَّ إذْ هديتنى للإسلام فلا تنزعنى منه ولا تنزعْه منى حتى تتوفانى وأنا على الإسلام ، اللهمَّ لاَ تُقدِّمْنِي للعذاب ، ولا تؤخِّرْنِى لسوءِ الفِتَنِ » .

* * *

العَربُ يسمون الحجَرَ الأملس الناعم صَفَاةً ، ويجمعون الصفاةَ على صَفاً ؛ فأصلُ الصفا فى لغه العرب بمعنى الحِجارة الملساء .

والعربُ يسمون الحجَر الأبيض الذى تُقْتَدَحُ منــه النارُ مَرْوَةً ، ويجمعونه على مَرْوٍ ؛ فأصلُ المروة فى لغة العرب بمعنى الحجر الأبيض .

والصفا والمروة المذكوران فى الآية الــكريمة وفى الأحاديث النبوية وفى مشاعِرِ الحج والعمرة جَبَلاَنِ من جبال مكة قريبان من الحرم الشريف

---

(١) هذه الجملة من قول الله تعالى فى وصف عباد الرحمن : (واجعلنا للمتقين إماما)

أما الصفا فهوقطعة من جبل أبى قُبَيْسٍ ، وهو واقع فى الجهة الجنوبية من المسجد الحرام على مقربة من الباب المسمى « باب الصفا » وهو أشبه ما يكون بالمصَلَّى طولُه ستة أمتار وعَرْضُه ثلاثة أمتار ، وهو مرتفع عن الأرض الآنَ بما يقرب من المترين ، وله أربَعُ دَرجات يُصْعَدُ عليها إليه ووراء هذا المكان إلى الجهة الجنوبية أربَعُ درجات أخرى ، و بعد هذه الدرجات الأخرى أصلُ جبل أبى قُبَيْسٍ ، وحول الصفا جدار يحيط بما عدا الجهة الشمالية منه ؛ لأن الجهة الشمالية منه هى الجهة التى يُصْعَدُ منها إليه

وأما المروة فهو قطعة من جبل قُعَيْقِعَان ، وهو واقع فى الجهة الشمالية الشرقية من المسجد ، والمروة : مكانٌ مرتفع عن الأرض مثل الصفا ، إلا أنه يُصْعَد إليه بخمس درجات بعدَها شبهُ مصطبةٍ طولُها أربعة أمتار وعرضُها متران ، ثم من بعد هذه المصطبة مصطبة أخرى عرضها متر واحد

والشارع الذى بين الصَّفا والمروة هو المَسْعَى ، وطولُ هذا الشارع أربعمائة متر وخمسةُ أمتار (٤٠٥ متراً) و يختلف عرضُه ؛ فتارة يكون عرضه عشرة أمتارٍ ، وتارة يكون عرضه اثنى عشر متراً .

وهذا الشارع أو المَسْعى ثلاثة أقسام : القسم الأول يبتدىء من الصفا و ينتهى بعد خمسة وسبعين متراً ، وقد رُكِّزَ عند نهاية هذا القسم عمودانِ أخضرانِ : أحدهما فى الحائط المقابل للمسجد الحرام ، وثانيهما حذاء الحائط بجوار باب المسجد الحرام الذى يسمى باب البغلة ، و يسمى هذانِ العمودان

« الميلين الأخضرين » والقسم الثانى يبتدئ من عند هذين الميلين الأخضرين وينتهى بعد سبعين متراً ، وقد رُكِّزَ عند نهاية هذا القسم عمودان آخران : أحدهما بباب المسجد الحرام الذى يُسَمى باب على ، والآخر فى الناحية المقابلة له ، والقسم الثالث يبتدىء من عند هذين المِيلَيْنِ الواقعين فى نهاية القسم الثانى وينتهى بالمروة ، وطول هذا القسم مائتا متر وستون متراً (٢٦٠ متراً) .

وإنما قُسِّمَ المسعى إلى هذه الأقسام الثلاثة لتحديد المسافة التى يسير فيها الساعى بين الصفا والمروة سَيْراً معتاداً ، والمسافة التى يسير فيهـا سيراً شديداً نوعاً ما ، اقتداء بسيد الأولين والآخرين سيدِنا محمدِ بنِ عبدِ الله نبى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وسنوضح لك ذلك ونبين الحكمة فيه بياناً وافياً عند الكلام على السَّعْيِ بين الصفا والمروة من أعمال الحج والعمرة إن شاء الله تعالى .

ولم يكن للصفا ولا للمروة دَرَج يُرْقى عليها إليهما ، ولا كان فى أحدهما بناء كما يَرَاهُ الحجاجُ فى هذه الأيام ، طولَ زمن النبى صلى الله عليه وسلم وزمن الخلفاء الراشدين الأربعة وزمن دولة بنى أمية ، وأولُ رجلٍ أحْدَثَ الدَّرَجَ وبَنَاه تيسيراً على السَّاعِينَ بين الصفا والمروة وتمكيناً لهم من أن يَصْعَدوا إلى الصفا حتى يُشْرِفوا على البيت الحرام وأن يصعدوا على المروة حتى يشرفوا على البيت الحرام أيضاً فى يُسْرٍ وسهولة هو عبدُ الصمد بن على والى مكة فى زمن أمير المؤمنين أبى جعفرٍ المنصورِ الخليفة العباس الثانى .

ولما كان زمنُ أمير المؤمنين المأمونِ الخليفةِ العباسيِّ السادسِ قام مبارك الطَّبَرِيُّ وَالِيهِ على مكة بتجصيص هذا الدرج وكَحْله بالنورة .

وفى سنة ٨٠٢ من الهجرة جَدَّدَ فرجُ بنُ بَرْقوق سلطانُ مصر دَرَج الصفا والمروة .

وفى سنة ١٢٩٦ من الهجرة جدد السلطانُ العثمانى عبدُ الحميد الثانى بناءَ هذا الدرج .

* * *

أما الميلان اللذان يقسمان المسعى إلى الأقسام الثلاثة التى ذكرناها فلم يكونا موجودين ، وإنما عملهما سودونُ المحمدى فى عام ٨٤٧ من الهجرة وعَلَّق حولهما قنديلين يستضيء بهما الناسُ إذا سَعَوْا ليلاً .

وكان شارعُ المَسْعَى غير مسقوف إلى سنة ١٣٤١ من الهجرة ، فسقفه حُسَين بن على ملكُ الحجاز يومئذ .

وفى عام ١٣٥٤ من الهجرة قام الملك عبدُ العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية الحالى بتبليط شارع المسعى : مَنْعاً للغبار الذى يثور فى وُجُوه الساعين من كثرة الحركة وشدة الزحام .

جزى الله تعالى هؤلاء العاملين على راحة قُصَّادِ بيت الله الحرام خَيْرَ الجزاء ، وأثابهم أجزل المثوبة ، وكتبهم عنده ممن أعان على عمل الخير ! .

مِنَى

قال الله تعالى : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ) نزلت هذه السورة الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنًى .

ورَوَى الإمامُ أحمد رضى الله تعالى عنه أن عبدَ الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنهما ! - كان يحبُّ إذا استطاع أن يُصَلى الظهر من يوم التروية[1] بِمِنًى ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم صَلّى الظهر يوم التروية بمنى

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجة عن عبد الله بن عباس - رضى الله تعالى عنهما ! - قال : صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهرَ يوم التروية والفجرَ يوم عرفة بِمِنًى[2]

وروى البُخارى ومسلم عن عبد العزيز بن رفيع قال : سألتُ أنَسَ بن مالك فقلت : أخبرنى بشىء عَقَلْتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أين صلى الظهر يوم التروية ؟ قال : بِمِنًى ، قلت : فأين صلى العصر يوم

---

(١) يوم التروية : هو اليوم الثامن من شهر ذى الحجة .

(٢) يعنى أنه صلى الله عليه وسلم ذهب الى منى فى وقت الظهر من اليوم الثامن ، وبقى هناك إلى أن صلى الفجر يوم التاسع

النَّفْر[١]؟ قال : بالأبطح ، ثم قال لى أنسٌ : افعَلْ كما يفعل أمرَاؤك .

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ قال : لمَّا كان يومُ التروية توَجَّهُوا إلى منى فأهَلُّوا بالحج[٢] ، وركب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فصلَّى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاءَ والْفَجْرَ ، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمَرَ بقُبَّةٍ مِنْ شَعَرٍ تُضْرَبُ له بنَمِرَة[٣] ، فسار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ولا تَشُكُّ قريشٌ أنَّهُ واقِفٌ عند المَشْعَر الحرام[٤] كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية ، فأجاز[٥] رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة ، فوجَدَ القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها ، حتى إذا زَاغَتِ الشمسُ أمَرَ بالقَصْوَاء[٦] فرُحِلَتْ له ، فأتى بطنَ الوادى ، فخطَبَ الناسَ وقال : إن دماءكم وأموالكم حَرَامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا .

وعن عبد الرحمن بن يعمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمَرَ مناديا

---

(١) يوم النفر : يومان أحدهما اليوم الثانى عشر من ذى الحجة ويسمى « يوم النفر الأول » وثانيهما يوم الثالث عشر ، ويسمى « يوم النفر الثانى »

(٢) أهلوا بالحج : أحرموا به ولبوا

(٣) نمرة : مكان فى طرف عرفة مما يلى مكة ، وقد أقيم فيه مسجد ، يسمى « مسجد نمرة » وسنذكر شأنه فيما سنذكره من مشاهد عرفات ، إن شاء الله تعالى

(٤) المشعر الحرام : موضع فى المزدلفة ، وسنذكره ونبين أقوال العلماء فيه

(٥) أجاز : سار

(٦) القصواء : اسم ناقة النبي صلى الله عليه وسلم ، وترحل : تعد وتهيأ

ينادى : أيامُ مِنًى ثلاثة ، فمن تعجَّل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى مِنًى ، فأتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنى ونحرَ ، ثم قال للحلاّق : خذ ، وأشار إلى جانبِهِ الأيمن ثم الأيسر ، ثم جعل يعطيه الناس

* * *

منى : اسمٌ للمكان الذى ينزل فيه الحجاج فى اليوم الثامن من ذى الحجة قبل الذهاب إلى عرفة فيقضون فيه بقية يوم الثامن وليلَةَ التاسع من ذى الحجة وصباح اليوم التاسع إلى أن تشرق الشمسُ ، ثم يذهبون إلى عرَفة ؛ وهو أيضاً المكان الذى يعودون إليه بعد الوقوف بعرفة يقضون فيه يومَ النحر وأيام التشريق ولياليها حتى ينْتهُوا من رَمْىِ الجمار

والمسافة ما بين شمالىِّ مكة ومنًى ستة كيلو مترات تقريبا يقطعها الجمل عادة فى ساعتين .

يُحَدُّ هذا المكان من جهة مكة بجمرة العقبة ـ وهى التى بايع الأنصارُ من أهل المدينة عندها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ـ ومن جهة المزدلفة وادى مُحَسِّر ، فأما عرضه فعرضُ الوادى الذى تحصُرُه جبال شاهقة ، ويبلغ ٦٣٧ مترا تقريبا .

ومِنى فى هذه الأيام قرية صغيرة عَرْضُها صَفَّانِ من البيوت أُقِيما على

جانبي طريقٍ يَشُقُّها نصفين ، وطولها يقطعهُ راكبُ الجملِ فى ثلث ساعة تقريبا ، وعرضُ الطريق الفاصل بين صَفَّىْ بيوتها مختلف ؛ فتارة يكون عرضُه عشرة أمتار ، وتارة يكون عرضُه عشرين مترا ، وتارة يقل عن العشرة ، وتارة يزيد عن العشرين ، ولا يسكن الناسُ منًى إلا فى أيام الحج .

وبمنًى من المشاهد : مسجد الخَيْفِ ، ومسجد الكوثر ، ومسجد الكَبْشِ ، ومسجد البَيْعَة . ومسجد مِنًى ، وغَارُ المرسَلاَت ، والجَمَرَات الثلاث ، والمَنْحَرُ ، وسنحدثك عن كل واحد من هذه المشاهد حديثاً مختصراً .

أما مسجد الخَيْفِ فهو فى الجهة الجنوبية من مِنًى ، يكون على يمينك إذا كنت قادما من مكة وعلى يسارك إذا كنت قادما من عرفات ، وهو مسجد محكم البناء فسيح الجَنَبات ، طول ضلعه الشمالية مائة وثلاثون متراً ، وطول ضلعه الغربية مائة متر ، وأكبر أبوابه واقع فى الجهة الشمالية ، وفوق هذا الباب مِئْذَنة بنيت بالطوب الأحمر ، وفى صحن هذا المسجد بالقرب من جداره الشرقى قبة عظيمة أقيمت فوق ثمانية عقود ، وهى فى موضع الخيمة التى أقيمت للنبى صلى الله عليه وسلم فى حَجَّة الوداع ، والتى صلى فيها الأوقات الخمسة من ظهر يوم التروية إلى فجر يوم عرفة ، وقد أقيم فى المسجد أربعة صهاريج كبيرة لحفظ مياه الأمطار حتى يشرب منها الناسُ فى موسم الحج ، وهذا المسجد مكشوف كله ما عدا جهتيه الشمالية والغربية ،

وأكثر حجاج المغاربة والدكارنة يتخذون هـذا المسجد سكناً لهم ، وقد عمر هذا المسجد مراراً .

وأما مسجد الـكوثر فواقع فى وسَطِ مِنًى على يمين القادِمِ من مكة ، وهو يبعد عن الطريق مسافة أربعين متراً تقريباً ، ويذكر قومٌ أن فى موضع هذا المسجد نزلت سورة الـكوثر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبجوار هذا المسجد بئر يشرب الناسُ منها ، وكثير من الناسِ يزورونه بقصد التبرك .

وأما مسجد الـكَبْشِ فواقع فى شمالىِّ جمرة العَقَبة على مسافة ثلثمائة متر تقريباً ، فى سفح جبل ثَبِير ، على يسـار القادم من مكة إلى عرفات ، والـكبشُ الذى يضـاف المسجد إليه هو — فيما يقول قوم — الـكبش الذى فَدَى الله تعالى به إسماعيلَ بن الخليل إبراهيم — عليهما أزكى الصلاة وأطيب السلام ! — وبجوار هذا المسجد صخرة يقولون : إنها الصخرة التى ذبح عليهـا الفِداءَ ، ومن الناس من يذهب إلى أن ذبح الفِداء لم يكن فى هذا الموضع ، ويؤيد هذا ما رُوِى عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ! ـ أنه قال « نَحر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى المـكان الذى نحر فيـه إبراهيمُ كبشَ الفِداء » وبالرجوع إلى السنة المطهرة نعلم أن رسـول الله لم ينحر هَدْيَه عند هذه الصخرة ، وإنما نحرَ فى مكانٍ بين الجمرتين ، وفى الصخرة شَقٌّ كبير يزعم الناسُ أن السكين أفلتت من يد إبراهيم رأفةً بإسماعيل فغاصت فى هذه الصخرة فشقَّتْها .

وأما مسجد البَيْعَة فهو قريب من العقبة التى هى أولُ مِنًى من جهة مكة ، وهو واقع وراء العقبة بيسيرٍ فى شِعْب من شعاب الجبل على يسار الذاهب إلى مِنًى ، وطولُ هـذا المسجد سبعة وثلاثون ذراعا تقريباً ، وبه رِوَاقان كلٌّ رواقٍ منهما مُسَقف بثلاث قُبَبٍ ، وله بابان : أحدهما فى جهته الشمالية ، والآخر فى جهته الجنوبية ، وإنما سمى « مسجد البَيْعَة » لأن فى موضعه حدثت بيعةُ العقبة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل المدينة بحضور العباس بن عبد المطلب عمٍّ النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمرُ هذه البيعة معروف مشهور عند أهل السير ، وقد بنى هذا المسجد أميرُ المؤمنين أبو جعفرٍ المنصورُ الخليفة العباسيُّ الثانى ، وقد جُدِّدَ بعده .

وأما مسجد مِنًى فموقعه بين الجمرة الأولى والجمرة الوسطى على يمين الذاهب إلى عرفة ، وطوله من محرابه إلى مؤخره ثمانية أذرع وعرضه سبعة أذرع ، ويقال له «مسجد المنحر» أيضاً ، ويقال : إن فى موضعه صلى النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الضحى ، وإنه عليه الصلاة والسلام نَحَر عنده .

وأما غار المرسـلات فموقعه فى سَفْح جبلٍ جنوبىَّ مسجد الخَيْفِ ، ويقال لهذا الجبل « جبل الصفائح » وهذا الغارُ غارصغير يبعد عن الطريق بثلاثمائة متر تقريباً ، ويقال : إن سورة المرسَلَات نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الغار ، والحُجَّاج يزدحمون على زيارة هذا الغار ازدحاما فوق كل ازدحام .

وأما الجمار فثلاث : أولاها التي تلي مسجد الخَيْفِ ، ويقال لها « الجمرة الأولى » والثانية بين الجمرة الأولى وجمرة العقبة ، وتسمى « الجمرة الوُسْطى » والثالثة « جمرة العقبة » وهي أقربُ الجمراتِ الثلاثِ إلى مكة ، وبين الجمرة الأولى والوسطى مائة متر وستة وخمسون متراً ونصف متر تقريباً (١٥٦½ مترا) وبين الجمرة الوسطى وجمرة العقبة مائة متر وسبعة عشر متراً تقريباً (١١٧ مترا)

وجمرة العقبة عبارة عن حائط من الحجر ارتفاعُه قريبٌ من ثلاثة أمتار وعرضُه قريب من مترين ، وقد أقيم هـذا الحائط على صخرة ترتفع عن الأرض بما يقرب من متر ونصف متر ، وقد أقيم بأسفل هذا الحائط حوض تسقط إليه حجارةُ الرَّجْمِ ، ويحدثنا الأزرقي أن الجهال كانوا قد أزالوا جمرة العقبة عن مكانها الأول بسبب أنهم كانوا يرمون الحصى في غير موضع الرمي ، وأن أمير المؤمنين المتوكل على الله العباسي أنفذ إسحاق ابن سلمة ، فحرَّرَ إسحاقُ هذا موضع جمرة العقبة ، وبنى من ورائها جداراً ، وجعل بجانب الجدار مسجداً حتى لا يتمكن أحد من أن يرميها من أعلى ؛ لأن السنة المطهرة قد وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقف الرامي من تحت الجمرة في بطن الوادي بحيث تكون مكة عن يساره ومِنًى عن يمينه ثم يرمي .

وأما المنحر فهو المكان الذي ينحر فيه الحجاج هَدْيَهم وفداءهم ، وذلك في يوم النحر (وهو يوم العاشر من ذي الحجة الحرام الذي هو يوم

العيد الأكبر) وقد ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم أن أيَّ مكانٍ من مِنًى ينحر فيه الحاج فهو آتٍ بالمطلوب منه ، ولا خلاف بين أحدٍ من علماء الشريعة وأئمتها فى أن كل بقعة من بِقاع مِنًى يصحّ النحرُ فيها ، حتى فى الدور والأماكن التى ينزل فيها الحاجّ ، لكن الأفْضَلُ أن ينحر الحاج فى المكان الذى نَحَرَ فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد روى أهلُ السنن أن النبى صلى الله عليه وسلم نحر عند الجمرة الأولى التى تلى مسجدَ مِنًى .

* * *

و بمنى مكان يقال له « المَفْجَر » وهو واقع خلف الجبلِ المقابل لِثَبِير ، وقد سمى بذلك لأن عنده دارت رحَى حرب طاحنة بين قصى بن كلاب وشيعَتِهِ و بين صُوفَةَ — وهم جماعة من بنى الغَوْث بن أدّ بن طابخة — بسبب أن قُصَيا وقومه سَبَقُوا بنى الغَوْث بن أد إلى رَمْى جمرة العقبة ، فتفجرت الدماء من الفريقين فى هذا الموضع ، فأخذ له هذا الاسم من تفجر الدماء .

وعند هذا المكان مَجْرَى « عين زُبَيْدَةَ » وهى العين التى يشرب من مائها الناسُ فى مِنًى ، وقد أقيمت عليها آلة بخارية لتوصيل الماء فى أنابيبَ تصعد الجبلَ ثم تنحدر منه إلى وادى مِنًى حيث تصبُّ فى أحواض أعدت هناك ليستقى الناسُ منها ، والجبلُ حائل بين أصل العين ووادى منى ؛ فمن أجل ذلك أقيمت هذه الآلة على النظام الذى أشرنا إليه .

المزدلفة

قال الله تعالى : (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ) .

ورَوَى مسلمٌ عن جابر بن عبد الله — رضى الله تعالى عنه ! — أن النبىَّ صلى الله عليه وسلَّم أتى المزدَلِفَةَ ، فصلَّى بها المغربَ والعشاءَ بأذانٍ واحدٍ وبإقامةٍ ولم يُسَبِّح (١) بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجرُ ، فصلَّى الفَجْرَ حِينَ تبَيَّنَ له الصُّبْحُ بأذانٍ وإقامةٍ ، ثم ركب القَصْواء حتى أتى المَشْعَرَ الحرامَ فاستقبل القبلة ، وكبرالله وهلَّله ووَحَّده ، فلم يزل واقفاً حتى أسْفَرجدا (٢) ، فدفعَ قبل أن تطلُعَ الشمْسُ حتى أتى بَطْنَ مُحَسِّر ، فحرَّكَ قليلاً ، ثم سلك الطريقَ الوُسْطى التى تخرج على الجمرة الكُبْرَى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرَماها بسَبْع حَصَيَاتٍ : يكبر مع كل حَصاَةٍ منها ، رَمَى من بطن الوادى ثم انصرف إلى المنحر .

ورَوَى البخارى وغيره عن عمر بن الخطاب — رضى الله تعالى عنه ! — قال : كانَ أهلُ الجاهلية لا يُفيضُونَ من جَمْع (٣) حتى تطلع الشمسُ ، ويقولون أشْرِقْ ثَبير (٤) ، كيما نُغير ، فخالفهم النبىُّ صلى الله عليه وسلم ، فأفاضَ قبل طلوع الشمس .

---

(١) لم يسبح بينهما : لم يصل نافلة (٢) أسفر : ظهر له ضوء النهار

(٣) جمع : اسم المزدلفة ، ويفيضون منها : يسيرون

(٤) ثبير : اسم جبل ، يريدون ان تطلع الشمس من جهته ، ونغير : نمشى

وروى البخارى ومسلم عن عائشة ــ رضى الله تعالى عنها ! ــ قالت : كانَتْ سَوْدَة [١] امرأة ضخمة ثَبِطة [٢] فاستأذنت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن تُفِيضَ من جَمْع بِلَيْلٍ ، فأذن لها .

وعن ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما ! — أنه قال : أنا مِمَّنْ قَدَّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم ليلة المزدلفة فى ضَعَفة أهله .

وعن عبدالله بن عُمَر بن الخطاب ــ رضى الله تعالى عنهما ! ــ أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أذِنَ لضَعَفَة الناس أن يُفِيضوا من المزدلفة بليلٍ .

* * *

المزدلفة موضع بين منى ، وعرفة يبيت فيه الحجاج بعد وقوفهم بعرفة ، والمزدلفة واقعة بين مأزِمَىْ عرفة ــ الذى يقال المضيق ــ و بين وادى مُحَسِّر من جهة مِنًى ، وطولها ما بين هذين الحدَّين أربعة آلاف متر وثلثمائة متر وسبعون متراً (٤٣٧٠ متراً) .

وتسمى المزدلفة أيضاً « جَمْعاً » وكان ابن عمر ــ رضى الله عنهما ! ــ يسمى المزدلفة كلَّها « المَشْعَر الحَرَام » ولكن العلماء على خلافه ، وأن « المشعر الحرام » اسم لبقعة معينة من المزدلفة سنبينها قريباً إن شاء الله .

وللعلماء فى بَيَان السبب الذى من أجله سميت المزدلفة بهذا الاسم أقوال كثيرة ؛ فقيل : سميت بذلك أخْذاً من الازدلاف الذى معناه الاقتراب ،

---

(١) سودة : إحدى أمهات المؤمنين (أزواج النبى صلى الله عليه وسلم)
(٢) ثبطة : بطيئة

لأن الناس يقتربون إليها ، وقيل : سميت بذلك لأنها مُقربة إلى الله تعالى ، وقيل : سميت المزدلفة من الازدلاف بمعنى الاجتماع لأن الناس يجتمعون بها ، وقيل : لأن الله تعالى جمع بين آدم وحواء بها ، وقيل : لأن الحجاج يجمعون بين صلاتى المغرب والعشاء فيها ، ولهذا سميت « جَمْعاً »

وفى المزدلفة من المشاهد : مسجد المزدلفة ، والمشعر الحرام

أما مسجد المزدلفة فواقع بجانب قُزَح ، وهو مسجد صغير قصير الحيطان

وقد وصفه الأزرقى بقوله « وذَرْعُ مسجد المزدلفة تسعة وخمسون ذراعاً وشبرٌ ، فى مثله ، ويكون مكسرا (يريد مساحته) ثلاثة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع وأحد وأربعون ذراعا ، ويدور حول المسجد جدارٌ ليس بمظلل ، وذرع طول جدار القبلة فى السماء (يريد ارتفاعه) سبعُ أذرع وثمان عشرة إصْبَعاً ، معطوفا فى الشق الأيمن عشرة أذرع وفى الشق الأيسر مثله ، وارتفاعُ بقية الجدارين الأيمن والأيسر ومؤخر المسجد ثلاثة أذرع ، وفيه ستة أبواب : باب فى جهة القبلة ، وبابان فى الجدار الأيمن ، وبابان فى الجدار الأيسر ، وباب فى مؤخر المسجد . وذَرْعُ ما بين مؤخر مسجد المزدلفة من شقة الأيسر إلى قُزَح أربعمائة ذراع وعشرة أذرع » انتهى كلامه بحروفه .

وقد حدثت فى هذا المسجد عمارات آخرُ ما ذكره المؤرخون منها فى سنة ١٠٧٢ من الهجرة ، وهى عمارة قام بها سليمان بك والى جُدَّة من قبل السلطان محمد .

وأما المشعر الحرام فهو — على ما عليه جمهور العلماء — المكانُ المسمَّى « قُزَح » وهو فى وسط المزدلفة ، وهو الموضع الذى يستحب للحُجَّاجِ أن يقفوا عنده يدعون الله تعالى ويذكرونه ويشكرونه أن هداهم للإيمان ووفقهم للطاعة وصالح الأعمال ، وإن كان الوقوف فى أى بقعة من بقاع المزدلفة مجزئاً (١) ، ولكن الاقتداء بالرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم والتأسِّى بعمله مرغوبٌ فيه مندوب إليه ، وقد ثبت فى السنة الصحيحة أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف عند قُزَحَ .

وكان قد بُنِيَ على هذا المشعر الحرام بناءٌ مُرَبَّعٌ يشبه المنارَةَ عرضُ كل ضِلَع من أضلاعِهِ اثنا عشر ذراعاً ونصف ذراع ، إلا أنه ينقص من الجهة الشرقية ثلث ذراع تقريباً ، ولهذا البناء دَرَجٌ من ظاهره ومن باطنِهِ ؛ فعدَدُ درجه الذى من ظاهره أربع وعشرون درجة ، وعَدَدُ درَجِهِ الذى من باطنه عشرون درجَةً ، وارتفاعُه فى السماء ثلاث عشرة ذراعاً ، وقد جرت عادة الناس أن يصعَدوا على الدرج الظاهرى وينزلوا على الدرج الباطنى .

وعلى جانبى الطريق الآنَ جِداران ارتفاعُ كل جدارٍ منهما أربعةُ أمتار وعرضه ثلاثة أمتار ، والمسافة بينهما ستون متراً ، والمكانُ الذى يحدُّه هذان الجدران هو الذى يسميه الناسُ المشعَرَ الحرامَ .

---

(١) لقوله صلى الله عليه وسلم « جمع كلها موقف »

وقد كان أهلُ الجاهلية يُوقدون بالمزدلفة ناراً ، ويقال : إن أول مَنْ أوقدها قُصَىٌّ بنُ كلاب ، وإنما كانوا يوقدون هذه النار ليَرَاها مَنْ يَدْفع من عَرَفَةَ حتى لا يضل الطريق .

وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم دَفَع من عرفة إلى جَمْع[1] والنارُ توقد وهو يؤمها حتى نزل قريباً منها .

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ! ـ قال : كانت النار توقد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان .

وعن أبى مروان الأسلمى أنه قال : رأيت عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ يقف على يسار النار ، يستقبل القبلة ، ويجعل النار عن يمينه.

وكانت هذه النار توقد بالحطب ونحوه حتى إذا كان عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد أوقدوا الشمع فوق الأسطوانة المبنِيَّةِ على قُزَح ، وبعد هارون الرشيد كانوا يَضَعُون على هذه الأسطوانة مصابيح كباراً يُسْرَجُ فيها بفُتُلٍ جِلَالٍ ضخمة ، فكان ضوءها يبلغ مكانا بعيداً ، ثم صارت من بعدُ توقد عليها مصابيح صغار تُسْرَج بفُتُل رفيعة .

---

(١) جمع ـ بفتح الجيم وسكون الميم ـ اسم لمزدلفة .

عَرَفَات

رَوَى مسلم وأبو داود وابنُ ماجة والإمامُ أحمد عن جابر بن عبد الله – رضى الله تعالى عنه ! – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نَحَرْتُ هٰهُنَا ، ومِنًى كلها مَنْحر ، فانحروا فى رحالكم ، ووقفت ههنا ، وعَرَفة كلها موقف ، ووقفت هٰهُنَا ، وجَمْع [1] كلها مَوْقف » .

وروى أصحابُ السنن عن عبد الرحمن بن يعمر – رضى الله عنه ! – أن ناساً من أهل نَجْدٍ أتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو واقف بعَرَفة ، فسألوه ، فأمر مُنَاديا ينادى «الحج عرفة ؛ مَنْ جاء ليلة جَمْعٍ قبل طلوع الفجر فقد أدرك ، أيام مِنًى ثلاثة ؛ فمن تعجَّل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه ، وأرْدَف رجلا ينادى بهن » .

ورَوَى أحمد بن حنبل وأبو داود عن عبد الله بن عمر بن الخطاب – رضى الله عنهما ! – قال : « غَدَا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مِنًى حين صلى الصبح فى صبيحة يوم عرفة حتى أتى عرفة ، فنزل بنَمِرَة – وهى منزل الإمام الذى ينزل فيه يوم عرفة – حتى إذا كان عند صلاة الظهر راح رسول الله صلى الله عليه وسلم مُهَجِّرًا [2] ، فجمع بين الظهر والعصر ، ثم خطب الناس ، ثم راح فوقف على الموقف من عرفة » .

---

(١) جمع : من أسماء المزدلفة كما قلنا .

(٢) مهجرا : أى فى وقت الهاجرة ، وهى نصف النهار .

وروى أصحاب السنن عن عُرْوَة بن مُضَرِّسٍ ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة ، فقلت : يا رسول الله ، إنى جئت من جَبَلَىْ طيء ، أَكْلَلْتُ راحلتى(١) ، وأتْعَبْتُ نفسى ، والله ما تركت من جَبَلٍ إلا وقفت عليه ، فهل لى من حج ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ شَهِدَ صَلاَتَنَا هذه ، ووقف معنا حتى ندفَعَ ، وكان قد وقف قبل ذلك بعرفة لَيْلاً أو نهاراً ؛ فقد تمَّ حَجُّه ، وقضى تَفَثَهُ » .

ولما كان الحجُّ لا يصح ولا يتمُّ إلا بالوقوف بعرفة فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، على ما سنبينه فى الكلام على أعمال الحج ، وكانت عرفة كلها موقفاً إلا موضعا فيها يسمى « بطن عُرَنَة » كما ثبت عن صاحب الشريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقد وجب أن نبين حدود عرفة ومشاهدها ، ونبين ـ مع ذلك ـ هذا الموضع الذى لا يجزىء الوقوف فيه حتى يجتنبه الحاج .

وقبل أن نشرع فى ذلك نبين لك أن العرب كلهم كانوا فى الجاهلية يَقِفُونَ فى حجهم بعرفة، إلا قريشاً فقد كانوا لا يخرجون عن حدود الحرم ، بما زيَّنَ لهم الشيطان أنهم يجب أن يكون لهم شأن غير شأن عامة العرب فَسَمَّوْا أنفسهم الحُمْسَ ـ أى المتشددين فى الدين ـ وقالوا : نحن أهلُ حرم الله ، لا نخرج من الحرم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل

(١) أراد أتعبت ناقتى بطول السير .

أن يبعثه الله رسولا قد ألهمه الله تعالى مافى صنيع قريش من الخطأ ، فكان إذا حج قَبْلَ البعثة يقف بعرفة كما يقف عامة العرب ، فلما بعثه الله تعالى نبياً ورسولا كان فيما أنزله عليه من شعائر الحج قوله سبحانه : (ثُمَّ أَفِيضُوا من حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ) فكان الوقوف بعرفة والإفاضة منها إلى المزدلفة فرضاً على كل مسلم ، لا فرق بين قرشي وغير قرشي ، وقد حَدَّثَ جُبَيْرُ بن مُطعم ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ قال : أَضْلَلْتُ بعيراً لى يوم عرفة ، فخرجت أطلبه ، حتى جئت عرفة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة مع الناس ، فقلت فى نفسى : هذا رجل من الحمس ، فما لَهُ خرج من الحرم؟ وكانت قريش لا تجاوز الحرمَ ، تقول : نحن أهل الله ، لا نخرج من الحرم ، وكان سائر الناس يقفون بعرفة ، وذلك قول الله عز وجل (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ الناس) قال سفيان : جاءهم إبليس فقال : إنكم إن خرجتم من الحرم إلى الحل زَهِدَت العرب فى حرمكم ، فخذَّلهم عن ذلك ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقف بعرفة سِنِيهِ كلها ، لا يقف مع قريش فى الحرم ، يريد إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل هجرته إلى المدينة .

ثم نقول : عَرَفة عبارة عن مَيْدَانٍ واسع أرضُه مستوية ، يقرب طوله من ميلين وعرضه كذلك ، وتحيط به سلسلة جبالٍ على شكل قوسٍ كبير ، ويمر بطرفَىْ هذا القوس من جهته الجنوبية (القِبْلية) الطريق الموصِّلُ من مكة

إلى الطائف ، وفى الجهة الشمالية (البَحْرِية) جَبَلُ الرحمة الذى يسميه الناس جبل عرفات ، وحقيقة الأمر أن جبل عرفات هو : كل ما أطاف وأحاط بهذا الميدان ، وأن جبل الرحمة أصغر جزء فيه ، وهذا الجزء — كما قلنا — واقع فى الجهة الشمالية ، ويبلغ ارتفاعه ثلاثين متراً وطوله قريب من ثلثمائة متر ، وفى متوسط ارتفاعه مكانٌ مُسْتَوٍ يبلغ طوله نحو خمسة عشر متراً وعرضه نحو عشرة أمتار ، وفى هذا المستوى مسجد يسميه الناس « مسجد إبراهيم » وفى أعلى موضع منه مكانٌ مُسْتَوٍ واسع مُبَلَّط ، وفى وسط هذا المستوى مسطبة قد بنى فى ركنها الغربى عَلَمٌ تعلق به عدة مصابيح لتكون هداية للناس يهتدون بها إذا ساروا ليلاً إلى موضع الجبل .

وفى هذا الميدان الذى هو ميدان عرفة يخيم الحجاج يومَ عرفة ، وفيه سوق ، وفيه عدة أحواض ماء ، وفيه جملة من المساجد .

وتبتدئ حدود عرفة مما يلى مكة على بعد واحد وعشرين كيلو متراً ونصف كيلو تقريباً من باب المعلاة بمكة ، وقد وُضع عند هذا الحد عَلَمان يَرْمِزَانِ إلى مبدأ عرفة ، وعرفة كلها واقعة فى الحل : أى فى خارج حدود الحرم ، وقد وضع قبل هذين العلمين من جهة مكة عَلَمان آخران يرمزان إلى آخر حدود الحرم .

والموضع الذى بين العلمين اللذين يرمزان إلى نهاية حدود الحرم مما يلى

مكة والعلمين الآخرين اللذين يرمزان إلى مبدأ حدود عرفات هو الذى يسمى « بَطْنَ عُرَنَةَ » .

ومن العلماء من يجعل بطن عرنةَ جزءا من عرفات ، ومنهم مَن يجعله خارجا عما يطلق عليه اسم عرفات ، وكلهم مجمعون على أن الوقوف ببطن عرنة لا يكفى عن الوقوف بعرفات اتباعا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن قول النبى صلى الله عليه وسلم « وعرفة كلها موقف إلا بطن عُرَنة » يدل على أن بطن عُرَنة جزء من المكان الذى يسمى عرفات وإن كان الوقوف فيه غير كافٍ ولا مجزىء .

وفى عرفة من المشاهد : مسجد نَمِرَةَ ، ومسجد الصخرات ، وسنتكلم على كل واحد منهما كلمة مُوجَزة :

أما مسجد نمرة فهو جامع كبير يبلغ طوله نحو تسعين مترا وعرضه نحو ثمانين مترا ، وقد أحاطت به الأروقة (البواكى) من جهاته الأربع ، وله محراب يرتفع نحو ثلاثة أمتار ، وعرضه قريب من متر ونصف متر ، ودخوله فى حائط المسجد قريب من متر ، وله منبر ذو عشر درجات يرتفع مترين ونصف متر ، ويسمى هذا المسجد « مسجد عَرَفة» ويسمى أيضا « مصلى عرفة » ومن الناس من يسميه « جامع إبراهيم » والحجاج يصلون فى هذا المسجد يوم عرفة صلاة الظهر والعصر ، يجمعون بينهما جَمْعَ تقديمٍ فى وقت الظهر ، أُسْوَةً بما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ثبت عنه أنه جمع

بين الظهر والعصر فى وقت الظهر يوم عرفة ببطن عُرَنة عند مسيره إلى عرفة فى حجة الوداع .

وأول عهد هذا المسجد بالبناء فى منتصف القرن الثانى من الهجرة ، وجَرَت فيه عمارات فى عصور مختلفة ، فقد عمره السلطان جَقْمَق فى سنة ٨٤٣ من الهجرة على يد الأمير سيدون ، ثم عمره السلطان قايتباى فى سنة ٨٧٤ من الهجرة ، ثم عُمِّرَ فى عهد السلطان محمد العثمانى فى سنة ١٠٧٢ من الهجرة على يد سليمان بك والى جدة يومئذ .

وأما مسجد الصخرات فواقع فى أسفل جبل الرحمة ، و إنما سمى بذلك لأن بأرضه صخراتٍ كبيرةً بعضُها إلى جانب بعض ، وقد زعموا أن النبى صلى الله تعالى وسلم عليه وعلى آله وصحبه قد صلى فى موضعه ، وجُدْرَانُ هذا المسجد تهدمَتِ الآن .

وقريب من عرفة مسجد يقال له « مسجد السيدة عائشة » وهـذا المسجد عند الحد الفاصل بين الحل والحرم الذى هو أول بطن عرفة مما يلى مكة ، ويُسَمى الموضع الذى فيه هذا المسجد « التَّنْعِيم » وطول هـذا المسجد ستة عشر متراً ، وعرضه خمسة عشر متراً ، وارتفاعه أربعة أمتار ، وخلف هذا المسجد حوض أعِدَّ لخزن الميـــاه طولُه أربعة وعشرون متراً ، وعرضه تسعة عشر مترا ، وعمقه ثلاثة أمتـار ، وسطحه عند سطح الأرض ، وفى كل جهة من جهتيه الشمالية والجنوبية سُلَّم يوصل إلى قاعِهِ ، ويتكون هذا السلم من سبع درجات ، وقد أنشأ هذا الخزان سنان

باشا الوزير المجاهد حين حج فى سنة ٩٧٨ من الهجرة ، وذلك أنه رأى ما يُعانيه المعتمرون من الجهد والمشقة فى حمل المياه من مسافات بعيدة ، ورأى بئرا قديمة هناك قد عفا[١] أثرها وامتلأت بالتراب، فأمر بإعادة حفرها وإصلاحها وإجراء الماء منها إلى هذا الخزان ، وجعل للقائم على نزح المياه أجرا من ريع وقف له أنشأه بمصر ، وتم ذلك فى سنة ٩٨١ جزاه الله خيرا[٢] !.

(١) عفا أثرها : أى درس وذهبت معالمه .

(٢) قد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر محمد بن أبى بكر أن يأخذ أخته السيدة عائشة أم المؤمنين إلى التنعيم لتعتمر من هناك ؛ فهذا سر تسمية هذا المسجد « مسجد السيدة عائشة »

طِيبَة أو مَدِينَة الرسُول

هى مُهَاجَرُ الرسول صلوات الله وسلامُه عليه وعلى آله ومُهَاجَرُ أصحابه الأكرمين ، وأَحَبُّ أرضِ اللهِ إلى الله سبحانه ، وفيها ثَوَى جَدَثُه الطاهر ، ومنها بَزَغَت شمسُ الهداية على هذا العالم فملأته نوراً وحكمة ، وهى من قبل ذلك مسكن الأوس والخزرج الذين شَرَّفهم الله تعالى ورسولُه باسم « الأنصار » وهى العاصمة الثانية لولاية الحجاز قديما ، وثانية المدن بعد مكة ، تقع فى شمال مكة على بعد خمسمائة كيلو متر تقريباً ، وهى واقعة فى صحراء مستوية واسعة ، وعلى مسيرة ثلث ساعة منها فى جهتها الشمالية يقع جَبَلُ أُحُد الذى كانت غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلَ مكة عنده وسميت باسمه ، وعلى مسيرة ساعة ونصف ساعة منها فى جهتها الجنوبية الغربية جَبَلُ عَيْرٍ ، وهو جبل مستقيم شامخ قريب من ذى الحُلَيْفة .

وقد كان اسمها قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إليها « يثرب » وقد ذكر الله تعالى هذا الاسم فى القرآن الكريم على لسان بعض الناس وذلك حيث يقول : (وإذ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) وسماها الله تعالى « المدينة » فى القرآن الكريم فى عدة آيات ؛ فمن ذلك قولُه سبحانه : (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ،

وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) ومن ذلك قوله تعالت كلمته : (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ)وسماها سبحانه «الدار» فى قوله : (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ) وسماها النبى صلى الله عليه وسلم طيبة ، وطابة ، اشتقاقاً من الطيب ، وهو الرائحة الحسنة ، أو الشىء الطيب ، وهو الطاهر الخالص من الأدران ، وذلك لأنها خالصة للايمان الذى لا يَشُوبه شرك . وقد رُوى عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ! ـ أنه قال : مَنْ قال للمدينة يثرب فليستغفر الله تعالى ، إنما هى طيبة ، وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر من مكة قال : اللَّهُمَّ إنك أخرجتنى من أحب أرضك إلىَّ فأسكنى أحبَّ أرضك إليك . فأسكنه الله تعالى هذه المدينة ، فهى أحب أرض الله إلى الله ، ولماسكنها صلى الله عليه وسلم قال : «اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا بِهَا قَرَاراً ورِزْقاً وَاسِعاً » وفيها يقول صلى الله عليه وسلم « مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَفْعَلْ ، فإِنَّهُ مَنْ مَاتَ بِهَا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

ويروى أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لما قدموا المدينة أصابهم جَهْد ، وأنهكتهم (١) حُمَّى المدينة ، فلزموا دُورَهم فما كان يصلى معه إلا نفر يسير ، فدعا لهم وقال : « اللهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينة كما حَبَّبْتَ إلينا مكة ، وبارك لنا فِى صَاعِهَا ومُدِّهَا ، وانْقُلْ حُمَّاهَا إلى الْجُحْفَةِ » .

ويُرْوَى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهمَّ إن إبراهيم عَبْدَكَ

---

(١) أنهكتهم : أضعفتهم .

وخَلِيلكَ و نَبِيَّكَ وَرَسُولَكَ ، دَعَاكَ لِأَهْلِ مَكَّةَ ، وإنَّ محمداً عَبْدَكَ وَنَبِيَّكَ وَرَسُولَكَ يَدْعُوكَ لأَهْلِ المدينة بمثل ما دعاك إبراهيمُ أنْ تُبَارِكَ فى صَاعِهِمْ وَمُدِّهِمْ وَثِمَارِهِمْ ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلَيْنَا الْمَدِينَةَ كما حَبَّبْتَ إلَيْنَا مكة ، واجعل ما بها مِنْ وَبَاءٍ بِخُمَّ ، اللَّهُمَّ إِنِّى قَدْ حَرَّمْتُ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا كما حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُكَ مَكَّةَ ».

وقد كان فى الزمن القديم للمدينة سورانِ : أحدهما داخلى ، والآخر خارجى ، ولم يكن واحد من هذين السورين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول رجل أقام سورا حول المدينة هو محمد بن إسحاق الجعدى وذلك فى سنه ٢٣٦ من الهجرة ، وأقام حولها سوراً منيعا يقصد به أن يمنع عنها غزوات البَدْو ، وجعل لهذا السور أربعة أبوابٍ : أحدها إلى جهة المشرق يخرج منه إلى بَقِيع الغَرْقَد ، وثانيها إلى جهة المغرب يخرج منه العقيق وإلى قَبَاء ، وفى داخل هذا الباب المصلَّى الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فيه العيد ، وثالثها إلى الجهة الشمالية يخرج منه إلى قبور شهداء أحد ، ورابعها فى الجهة الشمالية الغربية .

وفى سنه ٣٧٢ من الهجرة بنى الوزير عضد الدولة بن بُوَيْه ـ وهو وزير أمير المؤمنين الطائع لله بن المطيع العباسى ـ سورا للمدينة .

وفى سنة ٥٤٩ من الهجرة جدَّدَ محمد بن أبى منصور المعروف بالجواد الأصفهانى ـ وكان وزير صاحب اليمن ـ سورا محكما حول المسجد النبوى

وفى سنه ٥٥٧ زار المدينةَ الملكُ العادلُ نورُ الدين محمودُ بن زنكى فكلمه أهلها فى أن يبنى لهم سورا خارج سور الجواد الأصفهانى يحفظ أبناءهم وماشيتهم ، فأمر ببناء السور الخارجى ، وأغلب الظن أن هذا السور الذى بناه نور الدين قام فى موضع السور الذى كان قد بناه عضد الدولة .

وقد جددَ السور الخارجى الملكُ الصالح بن الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنه ٨٥٥ من الهجرة ، ثم جدد بعضه السلطان قايتباى فى سنه ٨٨١ من الهجرة ، وقد دَرَست معالمُ هذا السور .

أما السور الداخلى فقد جدده السلطان سليمان بن السلطان سليم العثمانى فى سنة ٩٣٩ وأتمه فى سنة ٩٤٦ وجعله على أساس السور القديم ، ثم جدد فيه السلطان محمد خان فى سنة ١٠٧٨ ثم عمره السلطان محمود فى سنة ١١٦٢ . ثم عمره السلطان عبد العزيز العثمانى فى سنه ١٢٨٥ من الهجرة ، وجعل ارتفاعه خمسة وعشرين متراً ، و بنى فيه أربعين برجا تشرف على ضواحى المدينة ، وهذه الأبراج كانت مشحونة بالمدافع لرد عُدْوَان المغيرين عليها .

وفى هذا السور اليوم خمسة أبواب : أولها باب يعرف بباب البقيع ، و بباب الجمعة ، وهو الذى يخرج منه إلى البقيع ، وثانيها باب يعرف بالباب المجيدى ، قريب من دار الضيافة ، وثالثها باب يعرف بالباب الشامى ، وهو فى الجهة الشمالية الغربية بين نهاية السور من هذه الجهة والقلعة ، ورابعها باب يعرف بالباب الصغير ، وهو واقع فى الجنوب الغربى للقلعة ، وخامسها باب يعرف

بالباب المصرى فى منتصف الجهة الغربية ، وقد فتح هذا الباب والى مصر محمد على باشا

وفى غربى هذا السور سور آخر أوسع محيطا منه ، وهذا السور يحيط بالدور الواقعة فى خارج السور الأول فى غربيِّهِ وجنوبيِّهِ ، ومبتدؤه من البقيع فى الجنوبى الغربى ، ومنتهاه عند القلعة التى أنشأها السلطان سليمان ، ولهذا السور خمسة أبواب : باب يسمى باب العوالى لأنه يخرج منه إليها ، و باب يعرف بباب الكوفة ، وهذان البابان عند البقيع ، وثالثها باب يسمى باب العنبرية ، و يسمى أيضاً الباب الحميدى ؛ لأن السلطان عبد الحميد جدَّده فى سنة ١٣٠٥ من الهجرة ، ورابعها باب يسمى باب الكومة وهو يقابل سَلْعاً ، وخامسها باب يسمى باب السد ، وقد يقال له باب قباء لأنه يخرج منه إلى قباء .

وفى المدينة المنورة ـ غير مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ عدة مساجد ، ونرى أن نذكر لك شيئا يسيرا عن أشهر هذه المساجد .

فأولها « مسجد القبلتين » وهو واقع فى شمالىِّ المدينة الغربى على رابية فى شفير وادى العقيق الصغير ، و إنما سمى بهذا الاسم لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى فيه الظهر متجها إلى بيت المقدس ، فنزل عليه وهو فى الصلاة آية التوجُّهِ إلى الكعبة ، فاستدار هو وصحبه فى أثناء الصلاة وتوجهوا إلى الكعبة وتحول النساءُ اللاتى كنَّ فى أواخر الصفوف

إلى مكان الرجال الذين كانوا فى أوائل الصفوف ، وتحول الرجال مكان النساء ، فلما صلى النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المسجد صلاة واحدة إلى قبلتين سمى « مسجد القبلتين » وَيُرْوَى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فى هـذا المسجد وقتئذ ، ولـكن رجلا من أصحابه صلى معه فى مسجده فتوجه صلى الله عليه وسلم فى صلاته إلى الـكعبة ، فلما أتموا صلاتهم انطلق هذا الرجل فمر بهذا المسجد ونفر من بنى سَلَمَةَ يصلون الظهر متوجهين إلى بيت المقدس ، فقال : أشهد لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الـكعبة ، فاستداروا إلى الـكعبة وهم فى صلاتهم .

وثانيها « مسجد الفتح » وهو فى شمالى المدينة الغربى على قطعة من جبل سَلْع ، فى المـكان الذى قام فيه النبى صلى الله عليه وسلم يوم غزوة الخندق يَدْعُو على الأحزاب من أهل مكة ومن انضم إليهم من العرب ، فاستجاب الله تعـالى دعاءه وأرسل عليهم ريحا أ كفأت قدورهم واقتلعت خيامهم ويسمى أيضاً « مسجد الأحزاب » و « المسجد الأعلى » .

وثالثها «مسجد الإجابة» وهو واقع فى شمالىّ البقيع على يسار السالك إلى العريض ، وإنما سمى بهذا الاسم لما رواه مسلم فى صحيحه من حديث عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بهذا المسجد دخل فركع ركعتين ، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف إلينا فقال « سألت ربى ثلاثا ، فأعطانى أثنتين ،

ومنعنى واحدة، سألته ألا يهلك أمتى بالسَّنَة(١) فأعطانى ، وسألته ألا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بَأْسَهُمْ بينهم فمنعنيها » .

ورابعها « مسجد الراية » وهو على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام فوق جبل يقال له ذباب ، ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على هذا الجبل ، ويروى أنه صلوات الله وسلامه عليه ضرب قبته فوق هذا الجبل فى غزوة الخندق ، وإنما سمى مسجد الراية لما روى أن يزيد بن هرمز كان يقاتل على ظهر ذباب ومعه الموالى وكان هو رئيسهم يحمل الراية لهم ، وربما سموا هذا المسجد « مسجد ذباب » .

وخامسها « مسجد السُّقْيَا » وهو واقع عند بئر تسمى السقيا وهى فى حَرَّة المدينة الغربية ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى فى هذا الموضع عند خروجه لغزوة بدر ، فأقيم المسجد فى موضع صلاته ، ومكانه الآن قبة تسمى بقبة الروس عند باب العنبرية .

وسادسها « مسجد الفضيخ » وهو واقع شرقى مسجد قباء على شفير الوادى فوق مرتفع من الأرض ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حاصر بنى النَّضِيرِ ضرب قبته فى موضع هذا المسجد وصلى هناك ستَّ ليالٍ ، وأن الخمر حرمت على المسلمين وقتذاك ، فخرج تحريمُها إلى

---

(١) السنة : الجدب والقحط ، سأل صلى الله عليه وسلم ربه ألا يسلط على أمته الجدب والقحط فيموتوا بسبب ذلك ، وصدق من سماه الرءوف الرحيم .

أبي أيوب الأنصارى وهو يشرب فضيخاً[١] ومعه نفر من الأنصار ، فلما بلغهم التحريمُ أراقُوا الفَضيخَ هناك ، وربما سموا هذا المسجد «مسجد الشمس» لأنه فى مكان عالٍ شرقىَّ مسجد قباء ، فأول ما يبزغ قرنُ الشمس تظهر فيه .

وسابعها « مسجد بنى قُرَيْظَةَ » وهو واقع فى شرقى مسجد الفضيخ بعيداً منه قريباً من الحرة الشرقية .

وثامنها « مسجد بنى ظَفَر » وهو واقع فى شرقى البقيع بطرف الحرة الغربية ، وربما سمى هذا المسجد «مسجد البغلة » وعند هذا المسجد فى الحرة من جهة القبلة آثار يزعمون أن بعضها أثر حافر بغلة النبى صلى الله عليه وسلم .

وتاسعها « مسجد أُبَىِّ بن كَعْبٍ » وهو واقع فى غربى مشهد عقيل وأمهات المؤمنين ، على يمين الخارج من درب البقيع ، وربما سمى هذا المسجد « مسجد بنى جديلة » .

وعاشرها «مسجد المائدة» وهو واقع فى شرقى المدينة ، على مسافة ثلث ساعة منها .

وحادى عشرها « مسجد الجمعة » وهو واقع فى وادٍ بمكان يقال له الغبيب ، وهو الذى صلى فى موضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم أول جمعة بالمدينة أثناء تحوله من قباء إلى المدينة .

وثانى عشرها « مصلى العيد » ويقول له الناس « مسجد الغمامة »

---

(١) الفضيخ : شراب مسكر يتخذ من البسر من غير أن تمسه النار

وهو خطأ ؛ لأن مسجد الغمامة واقع عند بَدْرٍ الموضع الذى كانت فيه « غزوة بدر » ومُصَلَّى العيد هذا غربى المدينة فى الموضع الذى يقال له المناخة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم منذ شرعت صلاة العيد فى السنة الثانية من الهجرة يخرج لصلاتها فى الفضاء ، ولم يتقيد بموضع معين ، لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ! ـ فى سِنِيهِ الأخيرة داوَمَ على صلاة العيد فى الموضع الذى يعرف اليوم بمصلى العيد الذى ذكرنا أنه واقع فى الجهة الغربية من المدينة عند الموضع الذى يقال له المناخة .

وفى المدينة المنورة مساجد غير هذه المساجد الذى ذكرناها ، منها مسجد حمزة ، ومسجد قباء ، ومسجد عروة ، ومسجد أبى بكر ، ومسجد على .

وليس من شأننا الآن أن نتحدث عن كل هـذه المساجد ، اجتنابا للاطالة ، ورغبةً فى الإيجاز والاختصار ؛ إذ كان من غرضنا أن نشير إلى ما قد تحتاج إلى معرفته إذا حدثتك نفسُك أن تَتَتَبَّعَ الآثار والمشاهدَ التى ألمَّ بها سيدُ الأولين والآخرين رسولُ الله سيدُنا محمدُ بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم !

مسجد الرسول

صلى الله عليه وسلم !

فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة يقع المسجد النبوى ـ على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام !ـ وهو مستطيل الشكل تقريباً ، طوله من الشمال إلى الجنوب مائة متر وستة عشر مترا وربع متر (١١٦¼) وعرضه من الجهة الجنوبية (القِبْلية) ستة وثمانون مترا وربع متر (٨٦¼) وعرضه من الجهة الشمالية (البحرية) ستة وستون مترا (٦٦ مترا) وهو مسجد شامخ البناء ، يتكون سَقْفُه من قِبَابٍ أقيمت على عُقُودٍ تحملها أَعْمِدَةٌ ، وعددُ أعمدة المسجد بما فيها المُلْصَقُ منها بالجدران ثلاثمائة عمود وسبعة وعشرون عمودا ، وفى وسط المسجد إلى الشمال صَحْن غير مسقوف ، ويسمى بالحصْوَة ، وفى غربيِّه ثلاثة أروقة ، وفى شرقِيِّهِ رواقان ، وفى شماليِّهِ ثلاثة أروقة ، وفى جنوبيه اثنا عَشَرَ رِوَاقًا ، وبين كل عمودين ثلاثُ ثُرَيَّاتٍ توضَعُ فيها مصابيح عُلِّقت فى عوارض بين الأعمدة بسلاسل من فضة .

وللمسجد النبوى الآنَ خمسةُ أبوابٍ :

الباب الأول : فى أول الجدار الغربى من جهة الجنوب ، ويسمى « باب السلام » .

والباب الثانى : فى ثلث الجدار الغربى من جهة الجنوب أيضاً ، ويسمى « باب الرحمة » .

والباب الثالث : فى الجهة الشمالية ، ويقال له « باب التوسل » وقد يسمى « الباب المجيدى » وهو قريب من زاوية المسجد الشمالية الشرقية .

والباب الرابع : فى الجهة الشرقية مُقَابِلَ باب الرحمة ، ويسمى « باب النساء » .

والباب الخامس : فى الجهة الشرقية أيضاً جنوبى باب النساء ، ويسمى « باب جبريل » .

وسنذكر هذه الأبواب مرة أخرى (ص ١١٠) ونذكر أسماءها القديمة

والداخلُ من باب النساء يرى على يمينه محرابا ، وعلى يساره صُفَّـةً ، وهذه الصفة هى « دكة الأغَوَات » وترتفع عن الأرَضِينَ أقلَّ من نصف متر ، وطولها اثنا عشر مترا ، وعرضها ثمانية أمتار .

وللمسجد خمسُ مآذن ، فى كل ركن من أركانه الأربعة مِئْذَنَة ، والخامسة أمام باب الرحمة ، فأما المئذنة التى فى الزاوية الغربية الجنوبية فتسمى مئذنة باب السلام ، وأما التى فى الزاوية الشرقية الجنوبية فتسمى المئذنة الرئيسية ، وعليها يؤذن شيخُ المؤذنين ، وأما التى فى الزاوية الشمالية الشرقية فتسمى المئذنة السليمانية ، وأما التى عند الزاوية الشمالية الغربية فتسمى المئذنة المجيدية ، والمئذنة الخامسة تسمى «مئذنة باب الرحمة» .

ومنبر المسجد واقع فى الرواق الثالث من الجهة القبلية ، وعلى يساره تجد المحراب النبوى ، وعلى يمينه تجد محرابا آخر يسمى «المحراب السليمانى» ، وثمة محراب ثالث يسمى «المحراب العثمانى» وهو واقع فى جدار المسجد القبلى

فى آخر الزيادة التى زادها أمير المؤمنين ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ! .

وقد أقيم حول الأروقة الواقعة فى شرق الصحن شَبَكَةٌ من الخشب الرفيع ، وجُعل مادارت حوله هذهِ الشبكة مُصَلًّى للنساء خاصة ، ومَدْخَلهن من « باب النساء » الواقع جنوبىَّ هذه الحظيرة .

وفى زاوية المسجد الجنوبية الشرقية جزء فُصِل من المسجد بسورٍ من النحاس الأصفر طولُ كُلٍّ من ضلعيه الشمالية والجنوبية ستة عشر مترا ، وطول كل من ضلعيه الشرقية والغربية خمسة عشر مترا ، ويسمى هـذا السور « المقصورة الشريفة » وفى داخل هـذا السور بناء ذو خمسة أضلاع ارتفاعُه نحوُ ستة أمتار ، وفى هذا البناء قبر سيد الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وقبر صاحبيه وخليليه : أبى بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، رضى الله تعالى عنهما ! يقع قبر الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فى الجهة القبلية ، وفى شماليه إلى الشرق قليلا قبر خليفته أبى بكر ، وفى شمالى قبر أبى بكر إلى الشرق قليلا قبر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وفى شمالى هـذا السور النحاس مقصورة أخرى طولُ ضلعها الشمالية أربعة عشر مترا ونصف متر ، وطولُ ضلعها الجنوبية أربعة عشر مترا ، وطول كل من ضلعيها الشرقية والغربية سبعة أمتار ، وفى هـذه المقصورة ضريح يزعم الناس أنه أقيم على قبر فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، والصحيح أن قبرها بالبقيع .

والمقصورة الكبرى باب غربى يفتح فى الروضة ويسمى « باب الرحمة » أو « باب الوفود » وفى جنوبى هذا الباب « شباك التوبة » ولها باب فى الجهة الشمالية يدخل منه الأغوات لإيقادِ الحجرة الشريفة ، ولها باب فى كل من الجهة الجنوبية والشرقية .

وبين منبر المسجد وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم مكان طولُه اثنان وعشرون مترا وعرضُهُ خمسةَ عَشَرَ مترا ، وهذا المكان هو « الروضة الشريفة » التى رُوِىَ فيها قولُه صلى الله عليه وسلم « مَا بَيْنَ قَبْرِى وَمِنْبَرِى رَوضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ » .

عمارة المسجد النبوي

على صاحبه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ !

لما أذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة من مكة إلى المدينة خرج هو وخليله وصفيه أبو بكر الصديق – على ماهو معروف مشهور – فكان أول نزوله بقباء – وهى قرية تبعد عن المدينة المنورة مسافة ميلين ، وتكون على يمينك حين تذهب من مكة إلى المدينة – وقد بنى بقباء مسجدا عُرف بمسجد قباء و بمسجد التقوى ؛ لأنه هو الذى نزل فيه قولُه تعالى : (لمسجد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم أحَقُّ أن تقوم فيه) فى رأى جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ و يذهب آخرون إلى أن هذه الآية نزلت فى المسجد النبوى ، ثم تهيأ الرسولُ – صلوات الله وسلامه عليه ! – للذهاب إلى المدينة فكان كُلُّ جماعةٍ من أهل المدينة يتمنون أن ينزل عندهم ، و يعرضون ذلك عليه ، ور بما أخذ بعضُهم بزمام ناقته يريد أن يحولها إلى داره ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لمن يفعل ذلك منهم « دَعُوها فإنَّهَا مأْمُورَة » وما زالت الناقة تسير حتى وصلت موضع المسجد النبوى الآن ، فبركت ، ثم قامت من تِلْقاَء نفسها فسارت غير بعيد ، ثم بركت ، وكانت دار أبى أيوب الأنصارى – رضى الله تعالى عنه ! – تُجاَهَ مبركها الثانى ، فنزل صلى الله عليه وسلم عند أبى أيوب ، وما تزال دار أبى أيوب قائمة فى شرق المسجد النبوى وفى

جدارها القبلي محرابٌ يقال : إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يُصَلِّى إليه ، والناسُ يتبركون به ، وكان الموضع الذى بركت فيه الناقة أولاً ملكاً لغلامين يتيمين من الأنصار ، وكان وليهما سعد بن زرارة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشترى هذا الموضع ليجعله مسجداً ، فساوم فيه ، فقالوا : بل نَهَبُه لك يا رسول الله ، فأبى صلى الله عليه وسلم إلا أن يشتريه ، وما زال بهم حتى اشتراه ، وكان فيه شجر ونخل وقبور لمشركين ، فأمر صلى الله عليه وسلم أن تُنْبَشَ القبورُ وأن يُقْطَعَ الشجرُ والنخلُ ، ثم أمر أن يُبْنَى هذا الموضع مسجدا ، فبنوا أساسه بالحجارة مقدار ثلاثة أذرع ، ثم بنوا جدرانه باللَّبِنِ ـ وهو الطوب النىء ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى معهم وينقل الحجارة واللَّبِنَ ، وهو يقول : « اللهُمَّ لا عيش إلا عيشُ الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة » ، ولما أتموا بناء الجدران جعلوا له أعمدة من جذوع النخل ، وسَقَفُوهُ بالجريد ، وجعلوا قبلته إلى بيت المقدس ، وبعد سَبْعَ عشرة شهرا من مَقْدَم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حَوَّلُوها تُجَاهَ الكعبة ، وكان للمسجد يومذاك ثلاثة أبواب : باب فى الجهة الجنوبية ، وعندما حولت القبلة إلى الكعبة أغلق هذا الباب وفتح بدله باب آخر فى الجهة الشمالية ، وباب آخر كان يسمى « باب عاتكة » وموضعه الآن البابُ الذى يسمى « باب الرحمة » وباب ثالث كان يسمى « باب آل عثمان » وموضعه الآن الباب الذى يسمى « باب جبريل »

و بعد مدة يسيرة بنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيتا فى شرقى المسجد ، وموضع هذا البيت اليوم الحجرة التى فيها جَدَثُه الطاهر ، وفى هذا البيت بنى[(١)] بعائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، و بنى بيتاً آخر لسَوْدَةَ بنت زَمْعَةَ أم المؤمنين ، ثم بنى فى أوقات متفرقة فى جنو بى المسجد بيوتا أخرى لزوجاته الطاهرات ، وكان يفصل هذه البيوتَ من المسجد طريقٌ عرضُه خمسة أذرع .

وفى سنة سَبْعٍ من الهجرة — و بعد عودته صلى الله عليه وسلم من غزوة خَيْبر — زاد فى المسجد من جهة الشرق والغرب والشمال حتى صار مربعاً طولُ كل ضلعٍ من أضلاعه خمسون مترا تقريبا .

فلما كان عهدُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله تعالى عنه ! — زاد فى المسجد من الجهة الجنوبية خمسة أمتار تقريبا ، ومن الجهة الغربية عشرة أمتار ، ومن الجهة الشمالية خمسة عشر مترا ، وأدخل فى هذه الزيادة دارَ العباسِ بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وجعل له ستة أبواب : بابين فى الجهة الغربية ، وبابين فى الجهة الشرقية ، وبابين فى الجهة الشمالية .

وفى عهد عثمان بن عفان — رضى الله تعالى عنه ! — أعيد بناء المسجد ، وزيد فيه رواق فى كل جهة من جهاته الأربع ، وتَنَوَّق — رضى الله عنه ! — فى البناء ؛ فجعله بالحجارة المنقوشة والجص ، وجعل عُمُدَهُ من حجارة منقورة

---

(١) بنى بها : أى دخل عليها . وكان قد عقد عليها بمكة

وأدخل فيها عُمُدَ الحديد وصَبَّ فيها الرصاص، وسَقَفَه بخشب الساج ، واتخذ لنفسه مقصورة صغيرة بناها بالطوب النيء ، وجعل فيها كُوَّةً[١] ينظر الناسُ منها إلى الإمام فى الصلاة ليعرفوا انتقالاته من ركن إلى ركن .

فلما كان عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان ــ وكان والى المدينة من قبله الرجلُ العادلُ عمرُبن عبدالعزيز بن مروان ــ جدد بناءالمسجد ، وأدخل فيه أرض حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم التى كانت لا تزال قائمة فى جنوبى المسجد وشماليه ، واقتطع جزء من حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها من جهة الروضة الشريفة ، وأقام على الحجرة الشريفة بناء ، وجعل هذا البناء خماسِيَّ الشكل لئلايظنه جَهَلَةُ المسلمين كعبة أخرى فيتخذوها قبلة ، ونقش حيطان المسجد بالمرمر والفُسَيْفِساَء ، وحلاه بماء الذهب ، ونقش رءوس العمدِ والأعتاب بالذهب .

وفى عهد أمير المؤمنين المهدى العباسى ، وذلك فى سنة ١٦١ من الهجرة زادوا فى المسجد من جهته الشمالية زيادةً استقر عليها جدارُ المسجد من هذه الجهة إلى اليوم ، وتم ذلك فى سنة ١٦٥ من الهجرة

ولم يزل ملوك المسلمين وسلاطينهم — وعلى الأخص ملوك مصر وسلاطينها — يتعاهدون المسجدَ النبويَّ الشريف بالتجديد والعمارة ، و يبذلون فى ذلك الأموال ، إلى أن انتقلت الخلافة إلى آل عثمان ، وصاروا هم

---

(١) الكوة : الطاقة (النافذة الصغيرة) وإنما بنى لنفسه هذه المقصورة دفعا لاعتداء الأشرار على الإمام ، كما فعل أبو لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة بن شعبة ، فإنه قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ رضى الله تعالى عنه ! ــ وهو مقبل على الصلاة .

أصحاب السلطان على بلاد الحجاز ، فقام هؤلاء مقام سلاطين المصريين فى عمارة المسجد والقيام بما عسى أن يحتاجه من تجديد ، ففى سنة ٩٨٠ من الهجرة عمره السلطان سليم الثانى ، و بنى به قبلة جميلة على حد المسجد الأصلى ، وأنت تراها الآن فى غربى المنبر النبوى ، وفى سنة ١٢٣٣ بنى السلطان محمود القبة الشريفة ، وفى سنة ١٣٥٥ أمر بترميمها ودهانها باللون الأخضر ، وفى سنة ١٢٦٥ قام السلطان عبد المجيد بعمارة كبيرة فى المسجد تناولت المسجد كله ، إلا المقصورة ومابداخلها ، و إلا المحراب العثمانى ، و إلا الجدار الشمالى وأكثر الجدار الغربى .

و بالمسجد اليوم ستة محاريب[1] : أولها المحراب المعمول فى الموضع الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصَلِّى فيه أو قريباً منه ، و يسمون هذا « المحراب النبوى » . والثانى المحراب الذى عمل فى الموضع الذى كان أمير المؤمنين عثمان بن عفان يصلى فيه ، وهو فى حائط المسجد القبلية ، و يسمون هذا « المحراب العثمانى » . والثالث محراب يسمى اليوم « المحراب السليمانى » وهو واقع غربى المنبر على الحد القديم للمسجد من جهة القبلة ، وقد بَنَى هـذا المحراب بعد منتصف القرن التاسع الهجرى طوغان شيخ ، وجعله خاصا بإمام حنفى يصلى بالناس . والرابع محراب واقع خلف حجرة فاطمة خارج عن المقصورة المحيطة بها ، و يسمى هذا « محراب التهجد » و يقال : إنه قائم فى الموضع الذى كان يتهجَّدُ فيه رسـولُ الله صلى الله

(١) المحاريب : جمع محراب ، وهو مكان الإمام فى صلاة الجماعة

عليه وسلم ، وقد جدد هذا المحراب فى العمارة التى حدثت فى عهد السلطان عبدالمجيد ، وكتب فيه آية التهجد ، وهى قوله تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً) . والخامس محراب فاطمة ، وهو واقع فى جنوبى محراب التهجد فى داخل المقصورة المحيطة بحجرة فاطمة . والسادس محراب يقع فى شمالى دكة الأغوات ، ويصلى به شيخ الحرم الآن صلاةَ التراويح .

وأما المنبر الموجود فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم الآن فهو مما أرسله السلطان مرادالعثمانى إلى المسجد ، وهو متخذ من الرخام له ثنتا عَشْرَةَ درجةً ثلاثٌ منها تقع خارج بابه والتسعة الباقية فى داخل الباب ، ويتحدث أهلُ الخبرةِ بأن هذا المنبر من عجائب الدنيا ، وأنه لا يكاد يكون له نظير .

وقدكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولَ الأمر يخطب قائما على الأرض غير مستندٍ إلى شىء ، ثم رأى أن القيام يطول به أحيانا ، وأنه قد يجد تعبا فاتخذ لنفسه جِذْعًا من جُذُوع النخل يستند إليه إذا طال به القيام ، ثم صَنَعُوا له منبرا من خشب الأثل ، وجعلوه ذا ثلاث درجات ، فلما كان أول مرةٍ خطب فيها على هذا المنبر سُمِعَ للجذع الذى يستند إليه حَنِينٌ ، فنزل من المنبر فوضع يده الشريفة عليه ، فسكَنَ حنينُه ، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال حينذاك : « لولا هذا لبقى يَحِنُّ إلى يوم القيامة » ويذكر العلماء أن هذا الجذع دُفِنَ بعد ذلك فى أرض المسجد بين المنبر والمُصَلَّى .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على الدَّرَجة الثالثة من درجات

منبره ، فلماولى أبو بكر — رضى الله تعالى عنه ! — أكْبَرَ أن يقف فى موقف الرسول ؛ فصار يقف على الدرجة الوُسْطَى ، فلما ولى عمر أكبر صاحبيه أن يقف موقف أحدهما ؛ فصار يقف على الدرجة الأولى ، فلماولى عثمان بن عفان — رضى الله تعالى عنه ! — وقف على الدرجة الأولى ست سنين ، ثم صار يقف على الدرجة الثالثة حيث كان يقف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وقد انتقده أصحاب الرسول يومئذ على هذا .

فلما كان عهدُ معاوية بن أبى سفيان جَدَّد هذا المنبر مروانُ بن الحكم عاملُ معاوية على المدينة ، وجعل له تسعَ درجاتٍ ، وجعل الدرجات الست التى زادها تحت الدرجات الثلاث الأصلية .

وفى سنة ٦٥٤ احترق هـذا المنبرُ فصنع الملك المظفر منبرا من خشب الصندل ، ووضعه فى موضع المنبر الأول .

وبعد سنين غُيِّر هذا المنبر بمنبر أرسله الظاهر بيبرس من مصر .

وفى سنة ٧٩٧ من الهجرة أرسل السلطان برقوق منبرا آخر فوضع مكان منبر بيبرس .

وفى سنة ٨٢٠ من الهجرة أرسل الملك المؤيد منبرا وضع بدل منبر برقوق وبقى هذا المنبر إلى سنة ٨٨٦ من الهجرة ، وفى هذه السنة احترق ، فأقام أهل المدينة منبرا من الآجُرِّ ، وبقى إلى سنة ٨٨٨ من الهجرة ، وفيها بعث الأشرف قايتباى منبرا من الرخام وُضِعَ فى مكان منبر أهل المدينة ، ومازال هذا المنبر

قائما إلى أن صنع السلطان مراد المنبر الذى لا يزال إلى يوم الناس هذا .

وجملةُ الأبوابِ الموجودةِ اليومَ فى المسجد النبوى خمسةُ أبوابٍ :

الباب الأول : فى جهة الغرب ، وكان أوّلا يعرف بباب مروان ؛ لأنه ملاصق لدار مروان ، ويعرف اليوم باسم « باب السلام » .

الباب الثانى : فى جهة الغرب ، وكان يعرف بباب عاتكة ، وهى عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ؛ لأنه واقع قُبَالَةَ دارها ، كما كان يعرف بباب السوق ؛ لأن السوق كان فى وقت من الأوقات فى جهة هذا الباب ، وهو الآن معروف باسم « باب الرحمة » .

الباب الثالث : فى الجهة الشمالية للمسجد ، وهو مما أنشأه السلطان عبد المجيد العثمانى ، وكان يعرف باسم « باب التوسل » وهو الآن معروف باسم « الباب المجيدى » .

الباب الرابع : باب فى شرقى المسجد ، أحْدَثَه أولَ الأمرِ أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله تعالى عنه ! — وقال حين صنعه : لو تركناه للنساء ! فتركوه لهن ، ولهذا يسمى « باب النساء » .

الباب الخامس : باب فى شرقى المسجد أيضاً جنوبىَّ باب النساء السابق ، وكان يعرف باسم «باب عثمان» ؛ لأنه كان فى قُبَالَةِ دار آل عثمان ويسمى اليوم باسم « باب جبريل » .

وإلى هنا انتهى بنا القول بإيجاز فى وصف المشاهد الطاهرة المقدَّسة ، زادها الله تعالى رفعة وشرفاً إلى يوم الدين ! .

الحَـجّ وأعمالُه

ونَرَى أن نتحدث لك فى الحج وأعماله — بعد أن وصفنا لك المشاهد الطاهرة التى لا بُدَّ أن تذهب إليها فى أعمال الحج وصفا دقيقا مع الاختصار والإيجاز ، و بعد أن ذكرنا لك فى وَصْف كل مَشْهد منها نبْذَةً مما مَرَّ عليها منذ فَرَضَ الله تعالى على خلقه الحجَّ إلى يوم الناس هذا ، حتى تكون على بصيرة تامة ، وتعرف كم من الأنبياء والصالحين سلكوا هذه الطريقَ من قبلك ، وكم من أهل الخير الذين بَذَلُوا من مالهم وجهدهم لتيسير الأمر عليك ، ودفع ماعسى أن يعرض لك من الجهد والمشقة ؛ فلعلك تنتفع بعمل من أعمالهم فيدفعك ذلك إلىَ أن تقتدى بهم فى عمل الخير لقُصَّاد بيت الله الحرام ، ومدينةِ رسوله عليه الصلاة والسلام ، فإن كنت ممن لم يؤتهم الله بَسْطة من الرزق تستطيع بها أن تعمل الخير ، أو كنت ممن لا تنشرح صُدُورهم لعمل الخير ، وأعوذ بالله أن تكون من أولئك ، فلا أقَلَّ من أن تَدْعُوَ لهؤلاء الذين سبقوك إلى بَذْلِ المال والمجهود بأن يُبَوِّئهم الله عنده مَقَاعِدَ الصدق ، وأن يُجْزِلَ لهم المَثُوبة ، و يتغمدهم بواسِعِ رحمته — نرى أن نتحدث إليك عن الحج وأعماله ، واحدا فواحدا ، ونذكر لك آراء علماء الشريعة الإسلامية فى كل عمل من هذه الأعمال ؛ لتأخذ من أقوالهم بما تراه

أوْفَقَ لحالك وأرْفَقَ بها ، ولتؤدى عملك كله صحيحاً موافقاً لما كلفك الله .

ونريد أن ننبهك ههنا — قبل أن نتحدث إليك هـذا الحديث — إلى أمرين هامين :

الأمر الأول : أن الحج ليس من الأمور التى يتيسر لك أن تقوم بها فى كل يوم ، ولا فى كل شهر ، ولا فى كل عام ، وربما لا يتيسر لك أن تقوم به غير مرة واحدة فى عمرك كله ، فلابد أن توقعه صحيحا موافقا لما أراد الله تعالى من عباده ، ولهذا أنصح لك بأن تقرأ ماذكرته لك عن كل واحدٍ من هذه الأعمال قبل أن تفعله ، وتتفهمه جيداً ، وتعرف حكم الشرع فيه معرفة دقيقة ثم تأتى به على الوجه المشروع ، مع الإخلاص لله تعالى فى سرك وجَهْرك ، وقد جَهَدْت جَهْدِى أن أبين لك ؛ ولهذا فإنى أسألك بالله الذى يَسَّرَ لَكَ الحج وأمكنك منه ، وأقْدَرَكَ عليه ، أن تدعُوَ لى بظهر الغيب دعوةً صالحةً ، وأن تسأله — سبحانه ! — لى ولوالدىَّ وللمسلمين المثوبَةَ والمغفرَة .

والأمر الثانى الذى نريد أن ننبهك إليه — وأنت حقيق بأن تعتقده عقيدةً ثابتةً لا تقبل التردُّد أبدا — أن اختلاف علماء المسلمين فى مسائل الأحكام الشرعية ليس من الاختلافِ المذمُوم المنهيِّ عنه والذى يُحَاول قوم أن يُطَبِّقُوا عليه أحكامَ الله تعالى فى اختلاف الأمم السابقة ، وأن يجعلوهُ تفريقاً للدين ، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو صاحب هذه الشريعة المطهرة ، وهو الذى بَلَّغَنَا أحكامَهَا ، وهو الذى أمرنا الله تعالى

باتِّبَاعِهِ ، والأخذِ بما أمرنا به ، والكفِّ عما نهانا عنه ـ يقول « اخْتِلافُ أمَّتِي رَحْمَةٌ » وقد كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم ـ وهم الذين شهدوا نزول الوحى على رسول الله ، وهم الذين أثنى الله تعالى عليهم ورضى عنهم ورَضُوا عنه ، وهم الذين شَدُّوا أزْرَ الرسول ، وهم الذين جعلهم رسول الله كالنجوم وذكر أن المؤمن إذا اقتدى بأيهم فقد اهتدى ـ كان هؤلاء يختلفون فى الأحكام ، و يستند كل واحد منهم إلى ما يَرْو يه أو يُرْوَى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن أحدهم يرى بأساً بهذا الاختلاف

وأنا أعتقد اعتقاداً جازما أن هذا الاختلاف فى فروع الأحكام أحَدُ الأسباب التى جعلها الله تعالى دليلا على يُسْر هذا الدين العظيم ، وعلى صلاحيته للبقاء إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين .

وغرضُنا من هذا الكلام ألا تظن فى أحدٍ من إخوانك المسلمين يعمل عملا يخالف ما تعمله ظنا سيئا ما دام عملُه يوافق ما ذهب إليه واحد من أئمة الإسلام الذين بَذَلُوا أقصى وُسْعهم فى استنباط الأحكام الشرعية من كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومما كان عليه أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ! .

* * *

ونعود ـ بعد ذلك كله ـ إلى الأخذ فيما نريد من بيان أعمال الحج؛ فنقول:

الحج ـ بفتح الحاء ، وقد تكسر ـ فى اللغة العربية معناه القَصْد ،

تقول : حَجَجْت فلانا ، وحَجَجْتُ الأمر الفلانى ، تريد أنك قصدته ، وقالوا « فلان مَحْجُوج » يريدون أنه مقصود من الناس لقضاء حوائجهم . ويطلق الحج فى الشريعة الإسلامية على معنى خاص ، وهو « قَصْدُ مكة وما حولها فى زمانٍ مخصوص من السَّنَة لأداءِ أعمال مخصوصة » أما الزمان المخصوص فابتداؤه أول شهر شوال وانتهاؤه يومُ التاسع من شهر ذى الحجة، فلو ذهب إنسان إلى مكة قبل شهر شوال أو بعد اليوم التاسع من ذى الحجة الذى هو يوم الوقوف بعرفة ، لم يكن ذهابه هـذا حَجًّا ، وأما الأعمال المخصوصةالتى يؤديها فهى ماسنبينها فيما يلى: من الطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفة ، وغير ذلك من أعمال الحج ، فلو أن إنسانا ذهب إلى مكة — ولو فى زمان الحج — لـكن لا لأداء هذه الأعمال بل لـكسبٍ من تجارة أو نحو ذلك لم يكن ذهابه هذا حجا .

والحجُّ فرضُ عَيْنٍ على كل مسلمٍ [(١)] ، بالغ ، عاقل ، قادرٍ عليه ، فغيرُ المسلم لا يجب عليه الحج ، بل هو ممنوع من دخول الحرم ، وواجب على المسلمين أن يَحُولُوا بينه و بين دخول الحرم ، والصبىُّ من المسلمين لا يجب عليه الحج ، والعبد المملوك من المسلمين لا يجب عليه الحج ، وغيرُ العاقل من المسلمين لا يجب عليه الحج ، وغير القادر — كالمريض الذى لا يستطيع الحركة ، وكالفقير الذى لا يجد النفقة اللازمة له فى سفره ذهاباً و إياباً وفى

(١) النساء فى ذلك مثل الرجال ، غير أنه يشترط فى وجوب الحج على المرأة — غير ماذكر — أن يكون معها رجل محرم منها ، أوزوج ، أو جماعة من النساء المأمونات

مدة إقامته هناك وما يلزم من النفقة لمن يتركهم فى بلده ممن يجب عليه شرعاً أن ينفق عليهم ـ كل هؤلاء لا يجب عليهم الحج .

والدليلُ على أن الحج فرضٌ على كل مسلم اجتمعت فيه هذه الشروط آيات من كتاب الله تعالى ، وجملة من الأحاديث الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أما الآيات فمنها قوله تعالى : (وَلِلهِ عَلَى الناسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اُسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِين) ومنها قوله تعالى لإبراهيم خليله : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بالحج يأتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كل ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فجٍّ عَمِيقٍ) ومنها قوله جل شأنه : (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ)

وأما الأحاديث فمنها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ محمداً رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ البَيْتِ مَنِ اُسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً »

ومنها قوله صلوات الله وسلامه عليه : « يأيها الناسُ ، اعْبُدُوا رَبكُمْ ، وصَلُّوا خَمْسَكُمْ ، وَصُومُوا شهركم ، وحُجُّوا بَيْتَ ربكم ، وأَدُّوا زكَاةَ أَمْوَالِكُمْ طَيِّبَةً بِهَا أَنْفُسُكُمْ ؛ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبكُمْ »

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ حَجَّةَ الإسلام مِنْ غير أن يمنعه سُلْطَانٌ جائرٌ أو مَرَض حابِسٌ أو عَدُوٌّ ظاهِرٌ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا ، وإن شَاءَ نَصْرَانِيًّا ، وإن شاء مَجُوسِيًّا »

ومنها قوله عليه صلوات الله وسلامه « مَنْ مَلَكَ زاداً وَرَاحِلَةً تُبْلِغُهُ إلى بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ فَلَمْ يَحُجَّ فَلاَ عَلَيْهِ أنْ يمُوت يَهُودِيًّا أوْ نصرانيا »

ويروى أن عائشة رضى الله تعالى عنها سألت النبى صلى الله عليه وسلم : هل على النساء من جهاد ؟ فقال « نَعَمْ ، عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لاَ قِتَالَ فِيهِ : الحجُّ ، وَالْعُمْرَةُ » .

وقد فرض الله سبحانه وتعالى الحج على المسلمين فى السنة التاسعة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، بالمدينة.

وقد أجمع كل علماء المسلمين على أن الحج فرضُ عينٍ على كل مسلم اجتمعت فيه شروط وجوب الحج التى ذكرناها ، وأجمعوا كذلك على أنه لا يجب إلا مرةً واحدة فى العمر كله ، إلا أن يَنْذِر إنسانٌ الحج ، فيلزمُه الوفاء بنذره ، لقوله تعالى : (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) ولقوله تعالى فى مدح المؤمنينَ : (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا)

والدليل على أن الحج لايجب إلا مرة واحدة فى العمر ما رواه أصحابُ السنن عن الأقرع بن حابس — رضى الله تعالى عنه ! — أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هذا الحج لعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « للأبَدِ ، ولو قُلْتُ فِى كُلِّ عَامٍ لَوَجَبَ ، وَلَوْ وَجَبَ ثُمَّ تركْتُمْ لَضَلَلْتُمْ » .

واختلفوا — رضى الله تعالى عنهم ! — هل يجب الحجُّ على الفَوْر أم يجب

على التراخى؟ ومعنى وجوبه على الفور أن أول عامٍ يجتمع فيه فى المسلم شروطُ الحج التى سبق ذكرها يجب عليه أن يحج فيه ، ولو أخَّرَهُ إلى عامٍ آخر كان فعلُه كفعل الصلاة بعد خروج وقتها ، وعلى مَن أخره عن أول عام إثمُ التأخير ، ومعنى وجوبه على التراخى أن فعله فى أول عامٍ تستجمع فيه شروطُ التكليف ليس لازما ، لكن الأفضل أن يُبادر بعمله ؛ لأن عمره بيد الله تعالى ، وهو لا يدرى لعله لا يعيش إلى عام آخر ، وكم من الناس يخترمُهم الموتُ فى سنِّ الصِّبا ، فالتبكير بإخلاء الذمة من فعل الواجب خير من التعلُّل والانتظار

والمشهورُ من مذهب أحمد بن حنبل أنه واجب على الفَوْر ، ويأثم إن أخره بلاعذر ، ودليلُه فى ذلك ما رواه أحمد فى مسنده من قوله عليه الصلاة والسلامُ « تعجَّلُوا إلى الحج ؛ فإن أحَدَكم لا يَدْرِى ما يَعرِض له »

وهذا هو الراجح فى مذهب المالكية ، وصَرَّحوا بأن الذى يؤخره عن أول سنة يمكنه فيها الحج يَعْصِى بتأخيره

وإلى هذا ذهب أبو يوسف صاحبُ أبى حنيفة

وذهب الإمامُ الشافعى رضى الله تعالى عنه إلى أنه واجب على التراخى، وهو قول محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة ، وهو قول فى مذهب المالكية

ولأبى حنيفة ــ رضى الله عنه ! ــ فى هذه المسألة قولان : أحدهما أنه

واجب على الفور كقول أبي يوسف ومالك وأحمد ، وثانيهما أنه واجب على التراخي كقول محمد والشافعي والقولِ الآخَرَ في مذهب مالك .

***

وأما العمرة فهي في اللغة العربية تطلق على الزيارة مطلقا ، وهي في الشريعة الإسلامة عبارة عن «زيارة بيت الله الحرام خاصة» ، فلا يقال « اعتمر فلان » إلا إذا كان قد زار الحرمَ وفعل هناك أفعال العمرة .

والعلماء يختلفون في العمرة : أفَرْضٌ هي كالحج ، أم هي سُنَّة ؟ فذهب مالك وأبو حنيفة ـ رضى الله تعالى عنهما ! ـ إلى أن العمرة سنة ، وليست فرضاً ، ووجه ما ذهَبَا إليه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بين أعمال الإسلام وقواعده قال « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » ولم يذكر العمرة مع هذه الخمسة ، فدل على أنَّ العمرة ليست مثلهن في الافتراض ، وما روى جابر ـ رضى الله عنه ! ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن العمرة : أواجبة هي ؟ قال : « لاَ ، وَأَنْ تعتمر خَيْرٌ لَكَ »

وذهب أحمد بن حنبل ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ إلى أن العمرة فرض على كل من افترض عليه الحج ، ووجه ما ذهب إليه أن الله تعالى يقول : (وَأَتِمُّوا الحجَّ والعُمْرَةَ لِلهِ) ومارواه أحمدُ وابن ماجة من حديث عائشة ـ

رضى الله تعالى عنها ! ـ أنها سألت النبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، هل على النساء من جهادٍ ؟ قال : نعم ، عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج ، والعمرة»

وللشافعى ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ فى هـذه المسألة قولان : أحدهما : أن العمرة فرض كما قال أحمد ، والثانى أن العمرة سنة كما قال مالك وأبو حنيفة ، رضى الله عنهم أجمعين ! والأول من هذين القولين هو الصحيح فى مذهب الشافعى ، وهو قوله فى المذهب الجديد .

ومَنْ قال من العلماء بأن العمرة فرض على مَنْ فرض الله عليه الحج يقول : لا تجب فى العمرة أكثر من مرة واحدة ، إلا أن يفرضها الإنسانُ على نفسه بالنذر ، والدليل على ذلك مارواه سُرَاقة بن مالك ، قال : قلت : يا رسولَ الله ، أَعُمْرَتُنَا هٰذِهِ لِعَامِنَا أَمْ لِلأَبَدِ ؟ قال : « لاَ ، بَلْ لِلأَبَدِ ، دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِى الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

***

مواقيت الحج : وللحج مواقيت زمانيـة ، ومواقيت مكانية

أما المواقيت الزمانية فهى الزمن الذى لا يصح للانسان أن يبتدىء أعمال الحج قبله ولا أن يؤخر أعمال الحج إلى مابعده ، وذلك شهران وتسعة أيام ، فأما الشهران فهما شوال وذو القعدة ، وأما تسعة الأيام فهى الأيام التسعة الأولى من شهر ذى الحجة ، والدليل على ذلك قولُ الله تعالى : (الحجُّ أشهُرٌ مَعْلُوماتٌ) وقد فسَّر العلماء هـذه الآية الـكريمة بما ذكرنا ، فمن قدَّم عملا من أعمال الحج على أول شوال كان كمن صَلَّى الظهر قبل دخول

وقتها ، ومن أخر أعمال الحج عن اليوم التاسع من شهر ذى الحجة لم يدرك الحج أصلا ، وذلك لأن الوقوف بعرفة الذى هو أهمُّ أركان الحج له وقت محدود ـ وهو يوم التاسع من ذى الحجة ـ فلو لم يدرك الحاجُّ الوقوفَ فى الوقت المحدود له شرعا فقد فاته الحج ولو كان قد أتى بجميع الأعمال ماعداه .

وأما الميقات المكانى فهو عبارة عن أماكِنَ حَدَّدَها النبى صلى الله عليه وسلم ، كُلٌّ واحد منها فى جهة من الجهات الموصِّلة إلى مكة ، وَبَيَّن أنه يجب على كل مَنْ قصد مكة لأداء الحج أو العمرة أن يبدأ إحرامه لما يريده منهما من هذا المكان الذى يمر به وهو ذاهب إلى مكة .

فأهلُ مصر والشام وشمالِ إفريقية الغربى و بلادِ الروم والتكرور يجب عليهم الإحرام من مكانٍ يسمى «الْجُحْفَة» وهى قرية تقع بين مكة والمدينة وهى إلى مكة أقرب ، وهى الآن خراب ، وقد حدث لهم بدلها مكان يسمى الآن « رابغا » .

وأهلُ المدينة المنورة ومن يكون بلادُه وراءها يحرمون من مكان اسمه « ذو الحُلَيْفَة » وهو عند الموضع المعروف الآن باسم « آبار علىّ »

وأهل اليمن والهند والسند وما كان من هذه الجهة يحرمون من مكان يسمى « يَلَمْلَم » .

وأهل العراق وما وراءها من خُرَاسَانَ وغيرها يحرمون من مكان اسمه « ذَاتُ عِرْق » .

وأهل نَجْدٍ والطائفِ يحرمون من مكان اسمه « قَرْنُ » .

وأما أهل مكة أنفسهم ومَنْ كان مقيما بمكة من غير أهلها أو مَنْ دَخل مكة قبل أشهر الحج لتجارة أو غيرها و بقى فيها حتى جاءت أشهر الحج وأراد أن يَحُجَّ فإنه يحرم من داره التى بمكة للحج إن شاء ، و يُسَنُّ أن يحرم من وسط المسجد ، فأما العمرة فالأفضل لهم أن يحرموا لها من التنعيم حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدَ الرحمن بن أبى بكر أن يأخذ أخته عائشة أم المؤمنين لتحرم للعمرة منه .

والعبرة فى ذلك بالطريق الذى يسلكه الإنسان ، فلو أن الإنسان خرج من بلده يريد مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من مدينة الرسول يريد مكة لأداء الحج أو العمرة فإن مكان إحرامه هو موضع إحرام أهل المدينة وهو ذو الحليفة الذى عند آبار على .

* * *

ونريد أن نبين لك قبل بيان أعمال الحج ـ أن الإحرام على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أن تحرم من عند الميقات بالحج والعمرة جميعا ، وعند التلبية تقول «لبيك بحج وعمرة» و يسمى هذا النوع من الإحرام «قِرَانًا» و يسمى المحرِمُ بهذا النوع « قَارِنًا » وهذا يستلزم أن يبقى المحرِمُ على صفة الإحرام إلى أن تنتهى جميع أعمال الحج .

النوع الثانى : أن تحرم من عند الميقات بالعمرة وحدها وعند التلبية تقول « لبيك بعمرة » وهذا النوع يستدعى أن تبقى على صفة الإحرام منذ نويت عند الميقات حتى تصل مكة فتطوف بالبيت وتسعى بين الصفا والمروة

وحينئذ تكون قد انتهيت من أعمال العمرة ، فلك أن تخلع ثياب الإحرام، وتلبس ثيابك المعتادة ، وتترفه بما شئت ، إلى أن يجيء يوم التروية ـ وهو اليوم الثامن من ذى الحجة ـ وأنت فى مكة ـ فتنوى الحج كأنك من أهل مكة ، فتحرم من أى مكان أَرَدْتَ ، ولكن من وسط المسجد أفضل ، وهذا النوع يسمى « تمتعا » ويسمى المحرِمُ به « متمتعا » .

والنوع الثالث : أن تحرم عند الميقات بالحج وحده وتقول فى التلبية «لبيك بحج» وهذا النوع من الإحرام يستدعى أن تبقى على صفة الإحرام منذ أَحْرَمْتَ عند الميقات إلى أن تنتهى أعمال الحج كلها كما فى النوع الأول ، وهذا النوع يسمى « الإفراد » ويُسَمى المحرِمُ به « مُفْرِداً » .

* * *

ولا خلاف بين أحد من علماء هذه الأمة فى أن كل واحد من هذه الأنواع الثلاثة جائز لا كراهة فيه ، ولكنهم يختلفون فى الأفضل من بين هذه الثلاثة ، فذهب أبو حنيفة ـ رضى الله تعالى عنه! ـ إلى أن القِرَانَ أفضلُ الثلاثة ، وأن التمتع أفضل من الإفراد ، وذهب مالك ـ رضى الله تعالى عنه! ـ إلى أن الإفراد أفضل الثلاثة ، وذهب أحمد بن حنبل ـ رضى الله تعالى عنه! ـ إلى أن التمتع أفضل الثلاثة ، ويروى عن الشافعى ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ قولان فى هذه المسألة : أحدهما أن التمتع أفضل الثلاثة كما ذهب إليه أحمد ابن حنبل ، وثانيهما أن الإفراد أفضلها كما ذهب إليه مالك رضى الله عنه !

والذى نرى لك أن تحرم على وجه التمتع ، وذلك بأن تحرم عند الميقات المكانىِّ بالعمرة وحدها ، وتبقى على صفة الإحرام مسافةَ الطريق ، حتى تدخل مكة فتؤدِّىَ أعمال العمرة فى وقت قصير جداً قد لا يتجاوز ساعتين ، ثم تخلع عنك ثياب الإحرام ، وتبقى مترفِّهاً بما شئت من أنواع الترفه حتى يجىء اليومُ الثامن من ذى الحجة ، فإذا حل هذا اليوم أحرمْتَ بالحج من وسط المسجد الحرام

وقد علمت أن هذا النوع من الإحرام أفْضَلُ الأنواعِ الثلاثة عند إمام أهل السنة أحمد بن حنبل — رضى الله تعالى عنه ! — وعلمت أن للشافعى — رضى الله تعالى عنه ! — قولا بأنه أفضل الأنواع الثلاثة أيضا ، وعلمت بأن أبا حنيفة — رضى الله تعالى عنه ! — يراه أفضل من الإفراد .

ثم إن هذا النوع من الإحرام — فوق ما ذكرنا من آراء الأئمة فيه — يُيَسِّر عليك أمر هذه العبادة ، ويمكنك من أن تقوم بأعمالها طَيِّبَ النفس ، منشرح الصدر ، غير منهوك الجسم ولا منحلِّ القوَى ، ومن أعظم ما ميز الله تعالى به دينَ الإسلام أنْ جَعَله يُسراً سَهْلا لا عُسْرَ فيه ولا جَهْدَ ولا مشقة ، وأن أوصَى أهله بأن يأخذوا بالرفق والسهولة فى أمورهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ هٰذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ رَجُلٌ إلاَّ غَلَبَه » .

وفى هذا النوع من الإحرام ميزة عظيمة — وهى أنه يجب على من

أحرم به دَمٌ يسمى « دم التمتع » وهو شاة يقدمها لله سبحانه وتعالى ، ينتفع بلحمها الفقراء والمحاويج

ومن مميزات هذا النوع من الإحرام ـ أيضا ـ أنك حين تَصِلُ مكة سيكون أول أعمالك طواف العمرة ، وهو ركن من أركانها، وأما إذا كنت مُفْرِداً فسيكون أول عملك الطواف بالبيت تحية لهذا البيت الحرام ، وهو سنة ، ولا شك أن الركن أفضل من السنة .

***

وسنعقد فيما بعدُ فَصْلاً نبين لك فيه الخُطُوَاتِ التى تسلكها خطوةً فخطوةً على أساس أنك ستُهِلُّ من الميقات المكانى لبلدك بالعمرة ، فإذا انتهيت من عملها ترفهت إلى يوم التروية، ثم تهلُّ من وسط المسجد الحرام فى ذلك اليوم بالحج ، والآن لنشرع فى بيان أعمال الحج واحداً فواحداً ؛ إذ كان الفصل معقوداً لبيانها .

***

<u>الإحرام بالحج</u> : لا تَنْسَ أن الإحرام لا يصح أن يتأخر عن المكان الذى حدده رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لِلْبَلَدِ الذى تخرج منه إلى أداء النسك ، وهو المسمى بالميقات المكانى ، ولكنه يجوز أن يتقدم عليه ، بل يجوز أن تحرم من بلدك نفسه ، وتقديمُ الإحرام عن ميقاته المكانى أفضل ، ولكنه ليس بلازم .

فإذا دنوت من ميقات بلدك المكانى فخذ فى الاستعداد والتهيؤ للاحرام ، قَلِّم أظافرك ، وقُصَّ شعرك ، واغْتَسِلْ ، فإذا لم يتيسر لك أن تغتسل فتوضأ ، وأباح الشافعى وأحمد بن حنبل ـ رضى الله تعالى عنهما ! ـ لمن لا يستطيع أن يستعمل الماء أن يتيمم

وأفضل هذه الأمور الثلاثة الغسل ؛ لأن هذا هو الذى فعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت حَقِيقٌ بأن تأتَسِيَ برسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما فعله ، وأيضاً فإن المراد التنظف ، والغُسْلُ أبلغ فى أداء هذا المراد

فإذا أنت أتممت تقليم أظافرك وقَصَّ شعرك واغتسلت فالْبَسْ إزاراً ورداء ، أما الإزار فإنه يستر نصف بدنك الأعلى ، وأما الرداء فإنه يستر نصف بدنك الأسفل والسنة فى هذا الإزار وهذا الرداء أن يكونا جديدين ، وأن يكونا أبْيَضين ، وقد ثبت فى صحيح الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ائتزر وارتدى عند إحرامه » ورَوَى أحمد بن حنبل ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ فى مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وَلْيُحْرِمْ أحَدُكُمْ فى إزارٍ وَرِدَاءٍ ونَعْلَيْنِ » ولا شك أن الجديد أقرب إلى النظافة ، غير أنه إذا لم يتيسر لك إزار ورداء جديدان فلا بأس بإزار ورداء غسيلين ، كما أنه إذا لم يتيسر لك إزار ورداء فلا مانع من الاكتفاء بالرداء الذى تستر به عَوْرَتَكَ ، وأما أن الأفضل فيهما هو الأبيض فذلك لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم قد قال « خَيْرُ ثيابكم البيضُ » .

ومن سنن الإحرام أن تتطيب قبل أن تحرم ، لأنه قد ورد فى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت « كنت أطيِّبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه قبلَ أن يحرم » وقد اُختلف العلماء فى نوع الطيب الذى يُسَنُّ للمحرم أن يتطيب به قبل أن يحرم ؛ فذهب أبو حنيفة وأبو يوسف ومالك والشافعى وأحمد رضى الله عنهم إلى أنه يجوز له أن يتطيب بكل نوع من أنواع الطيب ، سواءأ كان له لون أو جِرْمٌ يبقى بعد الإحرام أم لم يكن له لون ، وقال محمد بن الحسن الشيبانى : يجوز له أن يتطيب بما ليس له لون يظهر بعد الإحرام ، ولا يجوز له أن يتطلب بما له لون يبقى بعد الإحرام ؛ لأنه لو تطيب بما له لون يبقى بعد الإحرام يكون كما لو تطيب بعد الإحرام ، والتطيب بعد الإحرام ممنوع ، فكذا بما يكون له لون يبقى ، والصحيح هو الأول ، وأنه يجوز له أن يتطيب بأى نوع أراد من أنواع الطيب؛ لأنه قد ثبت من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : « فكأنى أنظر إلى وَبِيصِ الطيب [1] من مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ثلاثة مِنْ إحرامه » وهذا نص فى أن الطيب الذى تَطَيَّبَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قبل الإحرام كان ذا لونٍ ، وأن لونه بقى بعد إحرامه ثلاثة أيام .

* * *

ونحبُّ أن نُنَبِّهَكَ هنا إلى أن النِّسَاءَ يخالفْنَ الرجال فى اللباس وفى الطيب :

---

(١) الوبيص : البريق واللمعان والتلألؤ ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان للطيب أثر باق

فأما مخالفتهن فى اللباس فإنهن لا يَلْبَسْنَ الإزار والرداء ، ولكن يَلْبَسْنَ ثيابهنَّ المعتادة ، ولا يكشفن رءوسهنَّ كما يكشف الرجالُ رءوسهُمْ والأفضل أن يَلْبَسْنَ ثيابا بيضا تستر كل جسدهن و يضعن فوق رءوسهن خمارا أبيض يسترنَ به ما عدا الوجه ، كما يَفْعَلْنَ فى الصلاة .

وأما مخالفتهن فى الطيب للرجال فإن السنة فى حقهن أن يجعلن الطيبَ فى جسدهن ، لا فى ثيابهنَّ ، لأن ذلك أحْشَم لهن وأبعد عن الفتنة بهن .

***

ومن سنن الإحرام أيضاً : أن تصلى ركعتين قبل الإحرام .

فإذا أنت فعلت ذلك كله: قَلَّمْتَ أظافرك ، وقصصت شعرك ، واغتسلت ، ولبست الإزار والرداء ، وأمْسَسْتَ شعرك وجسدك ما تيسر لك من الطيب ، وصليت ركعتين ، فانْوِ بقلبك الحجَّ ، وقُلْ بلسانك « اللَّهُمَّ إنى أريد الحجَّ فيَسِّرْهُ لِى ، وتقَبَّلْهُ منِّى » ثم اشرع فى التلبية ، وصورة التلبية أن تقول : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبيَّكَ، لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْك ، إنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ » وارفع صَوْتك بهذه الكلمات ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع بهن صوته ، ولأنه عليه أفضل الصلاة والسلام قال : «أفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجُّ وَالثَّجُّ» أما العج فهو : رَفْعُ الصوت بالتلبية ، وأما الثجُّ فهو : إراقة دم الذبائح يوم النحر ، على ما سيأتى بيانه .

والألفاظ التى ذكرناها للتلبية هى التى رُوِيَتْ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى التى نُقِلَ أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قد قالها ،

وليس عليك أن تزيد على هذه الألفاظ شيئاً ، ولـكن إذا شئت أن تزيد شيئاً على هذه الألفاظ فَزِدْ ماشئت مما فعله أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بعضُهم ؛ فمن ذلك ما رُوى أن بعضهم كان يزيد «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ كله فِي يَدَيْكَ ، لَبَّيْكَ إِلٰهَ الْخَلْقِ غَفَّارَ الذُّنُوبِ »

ولا بُدَّ من أن تأتى بهذه التلبية مرة واحدة ، لـكن الأفضل أن تُكثر من هذه التلبية ، ويتأكد عليك الإتيانُ بها كلما عَلَوْتَ نَشَزاً(١) ، أو هبطت وادياً ، أو صَلَّيْتَ صلاةً من الصَّلَوَاتِ المفروضة ، وكلما أقبل الليلُ ، وكلما طلع النهار ، وكلما لقيت رُفْقَةً ، وكلما سمعت مُلَبِّياً ، وكلما ركبت ، وكلما نزلت ، وكلما رأيت البيت

ويُسَنُّ فى حق النساء أن يُخْفِينَ أصواتَهُنَّ بالتلبية ، وحَدُّ الإخفاء : أن تسمعَ جارتُهَا ، فإن رفعت إحداهُنَّ صوتها فوق ذلك كُرِهَ لها

***

فأما حكمة تقليم الأظفار وقص الشعر والاغتسال ومَسِّ الطِّيبِ فإن المحرِمَ ممنوع من أن يفعل شيئاً من ذلك مادام إحرامُه ، فسُنَّ له أن يفعل ذلك كله متصلا بأول وقتٍ يمتنع عليه فعلُه حتى لا يصيبه حَرَجٌ أو يَشُقَّ عَلَيه

وهـذا الغُسْلُ سُنَّةٌ للاحرام ، والمقصود به النظافة كما قلنا ، وليس المقصودُ به الطَّهارة الشرعية(٢) .

---

(١) النشز — بفتح النون والشين جميعا — المرتفع من الأرض

(٢) لـكن الظاهر أن الشافعية والحنابلة يقولون : إن المراد بالغسل الطهارة الشرعية ؛ بدليل أنهما أباحا لمن لا يقدر عليه ولا على الوضوء أن يتيمم ، والمتيمم لا يقصد به النظافة

ومن آيات ذلك أن الاغتسال سنة فى حق المرأة ، ولو كانت حائضاً أو نُفَساء ، وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمَرَ أسماء بنت عُمَيْسٍ — وهى نُفَسَاء — أن تغتسل ، روى ذلك مسلم ، وثبت أنه عليه أفضل الصلاة والسلام أمر عائشة به وهى حائض .

والسُّنَّةُ أن تُقَدم تَقْليمَ أظافرك وقصَّ شعرِكَ وشاربك وإزالَةَ شعر الإبطِ والعانة على الغُسْل بكل حالٍ ، نعنى سواء أ كُنْتَ جُنُباً قبل ذلك أم لم تكن ، هـذا عند الأئمة الثلاثة أبى حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل ، فأما الشافعى فالسنة عنده أن تقدم هذه الأشياء إذا لم تكن جنبا ، فأما إذا كنت جنبا فالسنة عنده أن تقدم الغُسْلَ على هذه الأشياء حتى تكون هذه الأشياء طاهرة عند انفصالها من الجسد .

فإذا أنت نَوَيْتَ ولَبَّيْتَ على ما ذكرناه لك فقد صِرْتَ مُحْرِماً وحَرُمَ عَلَيْكَ أن تفعل شيئاً مما سنذكره لك فيما بَعْدُ .

* * *

ما يحرم على المحرم : قد نهى الشارعُ الحكيم المحرمَ بالحج أو العمرة عن أشياء ، وبعضُ هذه الأشياء التى نهى الشارع عنها حرام لايجوز للمحرم أن يفعله ، وبعضها مكروه الأحسنُ له ألا يفعله ، وفى بعض هذه الأشياء خلاف بين أهل المذاهب الأربعة ، وسنذكر ذلك تفصيلا ، وذلك يقتضى أن نبين هذه الأشياء واحداً فواحداً ثم نذكر حكم كل واحد منها فى المذاهب الأربعة:

فأول هذه الأشياء : عَقْدُ الزواج ، وقد ذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى أنه لا يجوز للمحرم أن يعقد زواجه فى أثناء إحرامه ، وأنه لو عقده وقع باطلا ، وأما الحنفية فقالوا : يجوز للمحرم أن يعقد عقد الزواج لنفسه أو لغيره ، لأن الإحرام لا يمنع صلاحية المرأة للعقد عليها .

وأجمع الأئمة الأربعة على أن وطء الرجل زوجته فى أثناء الإحرام حرام ، وكذا دواعى الجماع كالقُبْلَةِ ونحوها .

الثانى : الخروج عن طاعة الله تعالى بفعل محرم ، وهذا متفق عليه فى المذاهب الأربعة ، وهو مُحَرَّمٌ فى غير الحج ، ولكن حرمته فى الحج تتأكد وتشتد .

الثالث : المخاصمة مع الرفقاء والخدم وغيرهم .

والدليل على حرمة هذه الأشياء قولُ الله تعالى : (فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فى الحج) وقد اختلف العلماء فى تفسير الرفث ؛ فقيل : هو الجماع ، وقيل : هو دواعى الجماع كالقُبْلة ، وقيل : هو ذِكْرُ الجماع فى حضرة النساء ، وقيل: هو الكلام القبيح ، فتحرم كل هذه الأشياء احتياطا ، والفسوق: المعاصى كلها ، والجدال : هو المخاصمة مع الرفيق والجَمَّال وغيرهما .

والرابع : التعرض لصيد البر بقَتْلٍ أو ذَبْحٍ ، أو الإشارة إليه إن كان

مرئياً ، أو الدلالة على موضعه إن كان غائباً ، ويدخل تحت هذا إفسادُ بَيْضِهِ ؛ لأن البيض هو أصله الذى ينشأ عنه .

والدليل على حرمة هـــذا قول الله تعالى : (وَحُرِّمَ عليكم صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً) وقوله سبحانه : (لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) وما رُوى أن أبا قتادة رضى الله تعالى عنه صادَ حمارَ وَحْشٍ وهو حَلَال وأصحابه محرمون، فسألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن أكله ، فقال: هل أشرتم ؟ هل دللتم ؟ قالوا : لا ، قال : إذاً فكُلُوا .

وقد اختلف العلماء من ذلك فى مسألتين : الأولى تحديد الصيد البرى، فذهب المالكية والحنفية والحنابلة إلى أن البرى هو : ما يكون توالده وتناسله فى الماء ، وقال الشافعية : البرى هو ما يعيش فى البر وحده أو يعيش فى البر والبحر جميعا ، والمسألة الثانية : هل يحرم التعرض لصيد البر سواء أكان مأكولا أم لم يكن ؟ فذهب المالكية والحنفية إلى أنه يحرم التعرض لصيد البر مطلقاً ، أى سواء أكان مما يؤكل أم كان مما لا يؤكل ، وذهب الشافعية والحنابلة إلى أنه لا يحرم التعرض لصيد البر إلا إذا كان مأكولا ، أما إذا لم يكن مأكولا كالسبع والذئب فإنه لا يحرم التعرض له .

وأما صَيْدُ البحر فإنه لا يحرم التعرض له إجماعاً ، والدليل على ذلك قول الله تعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ)

والخامس مما يحرم على المحرم : استعمالُ المُحْرِمِ الطيبَ فى ثوبه أو بدنه .

والسادس : تقليم الأظفار .

والسابع ، وهو خاص بالرجال ، أن يلبس ثَوْباً مَخِيطاً كالقميص والسراويل والجبة ، أومُحِيطاً وإن لم يكن مَخِيطاً كالطربوش والعمامة واللِّبْدة ونحوهن .

والثامن، وهوخاص بالرجال أيضاً ، أن يغطى رأسه أو وجهه أو بعضهما بساترٍ أىِّ ساترٍ ، وخالف فى هذا الحنابلة فقالوا : لا يحرم على الرجل تغطية وجهه .

أما المرأة فيجوز لها أن تستر وجهها ويديها وهى محرمة إذا قصدت الستر عن الأجانب ، غيرأن الحنفية والشافعية قالوا : إذا أرادت المرأة ستر وجهها وَجَب أن تجعل الساتر بعيداً بحيث لا يَمَسُّ وجهها ، وقال الحنابلة : لا يضر التصاقُ الساتر بوجهها ، وقال المالكية : إذا أرادت المرأة أن تستر يديها ووجهها عن أعين الناس جاز لها ذلك بشرط أن تتأكد من أن هناك مَنْ ينظر إليها ، أو أن تكون بارعة الجمال ، و بشرط أن يكون الساتر لا غَرْزفيه ولارَبْط ، فإن لم يتحقق هذان الشرطان حرم عليها ستر وجهها ، ويجوز لها ستر يديها بإدخالها فى كمها .

والتاسع مما يحرم على المحرم : لبس ثوب مصبوغ بما له رائحة طيبة ، واتفق علماء المذاهب الأربعة على أن المصبوغ بالزعفران والوَرْس حرام ، إلاأن يُغْسَلَ بحيث لاتظهر له رائحة ، والوَرْسُ : نبت أحمر يكون ببلاد

اليمن ، تصبغ به الثياب ، واختلفوا فى المصبوغ بالعُصْفُر ؛ فقال الحنفيةُ : هو كالمصبوغ بالزعفران حرام ، وقال المالكية : إن كان صَبْغُه قويا حرم لبسه ما لم يغسل حتى تذهب رائحته ، وإن كان صبغه ضعيفا لم يحرم لبسه إلا أن يكون مَنْ يريد لبسه ممن يُقْتَدَى به فإنه يكره له لبسه ، وقال الشافعية : المصبوغ بالورس ونحوه مما يقصد لونه دون رائحته كالحناء لا يحرم لبسه ، وقال الحنابلة : لا يحرم لبس المصبوغ بالعصفر مطلقا ، أى سواء أكان صبغه قويا أم كان صبغه ضعيفا .

والعاشر مما يحرم على المحرم : أن يزيل شعر رأسه بالحلق أو القص أو غيرهما ، وكذا شعر غير الرأس ولو كان نابتا فى العين ، ويستثنى من ذلك ما إذا كان يتأذى ببقائه ، فإن كان يتأذى ببقائه جاز له أن يزيله ، ثم إن كان يتأذى ببقائه فأزاله فإن كان الذى أزاله شعر العين فلا فِدْية عليه ، وإن كان شعر الرأس أو غيرها فعليه الفدية ، وقال علماء المالكية : عليه الفدية مطلقاً : أى سواء أكان المزال بسبب التأذى هو شعر العين أم كان شعر غير العين ، وسنبين الفدية فيما يأتى إن شاء الله تعالى .

والحادى عشر مما يحرم على المحرم : الاختضاب بالحناء ، سواء أكان فى اليدين أم كان فى الرأس أم كان فى غير اليدين والرأس ، ويستوى فى هذا الرجل والمرأة عند المالكية والحنفية ، أما الشافعية فقالوا : إنّ الخضابَ للمرأة بالحناء حَالَ الإحرام مكروهٌ ، وليس بحرام ، إلا إذا

كانت المرأة معتدة لوفاة زوجها فإن الاختضاب حرام عليها ، هذا إذا كان الخضاب غير نَقْشٍ ، أما إذا كان نَقْشاً فإنه حرام عليها سواء أ كانت معتدة أم لم تكن ، وأما الرجل فليس حراما عليه ولا مكروها له الاختضاب بالحناء فى حال الإحرام إلا إذا كان الاختضاب فى اليدين أو الرجلين فإنه يحرم عليه خَضْبُهما لغير حاجة ماسَّة ، وأما الحنابلة فقالوا : لا يحرم على المحرم الاختضاب بالحناء فى أى جزء من البدن ، رجلا كان المحرم أو امرأة ، إلا أن الرجل يحرم عليه أن يخضب رأسه .

والثانى عشر مما يحرم على المحرم : الاكتحال بما فيه طيب ، فإن اكتحل بما فيه الطيب فعليه الفدية ، أما الاكتحال بما ليس فيه طيب فجائز عند الحنفية والشافعية والحنابلة ، وقال المالكية : يحرم الاكتحال بما ليس فيه طيب كالاكتحال بما فيه طيب ، غير أنه لو اكتحل بما ليس فيه طيب لعذر فلا فِدْيَةَ عليه .

الثالث عشر مما يحرم على المحرم : أن يأكل أو يشرب طيبا أو شيئاً مخلوطا بطيب كماء الورد والزعفران ، سواء أ كان الطيبُ قليلا أم كثيراً ، إلا أن يستهلك الطيب فلا يحرم حينئذ ، واختلف العلماء من ذلك فى مسألتين : المسألة الأولى : فى معنى استهلاك الطيب ؛ فقال الحنفية والشافعية والحنابلة : معنى استهلاك الطيب ألاَّ يبقى له طعمٌ ولا رائحة ، وقال المالكية : معنى استهلاك الطيب ذهابُ عينه بالطبخ ، ومتى ذهبت عين الطيب بالطبخ لم يحرم ولو بقيت

رائحتهُ كالمسك أولونُه كالزعفران ، أما مالم يطبخ فيحرم تناوله على المحرم ، والمسألة الثانية : هل يستوى فى التحريم أن يكون مايضاف إليه الطيب مطبوخا أو غير مطبوخ ؟ قال الشافعية والحنابلة : يستوى الأمران ، وقال الحنفية : إذا تغير الطيبُ بالطبخ فلا شىء على المحرم فى أكله ، أما إذا خالط الطيب مايؤكل بغير طبخ فإنه ينظر : إن كان الطيب مغلوبا فلاشىء فيه ، إلا أنه إن بقيت رائحة الطيب غالباً ففيه الجزاء ، هذا إذا خلط بما يؤكل ، أما إن خلط بما يشرب فإنه ينظر : إن كان الطيب غالباً ففيه دم ، وإن كان الطيب مغلوبا فإن شرب مرة واحدة ففيه صدقة ، وإن شرب مراراً ففيه دم ، وأما إذا أكل عين الطيب فإن كان كثيراً ففيه دم ، وإن كان قليلا فلا شىء فيه .

الرابع عشر مما يحرم على المحرم : دَهن شعره أو بَدَنه ، ولعلماء المذاهب الأربعة خلاف فى ذلك .

أما الحنفية فقالوا : الأشياء التى تستعمل فى البدن تنقسم إلى ثلاثة أنواع : النوع الأول : شىء هو طيب فى نفسه ، متى أعِدَّ استعمل للتطيب به كالمسك والكافور والعنبر ، وهذا النوع لا يجوز للمحرم أن يستعمله فى ادهان ولا غيره بأى وجه كان ، والنوع الثانى : ما ليس طيبا بنفسه ، وليس فيه معنى الطيب ، ولا يصير طيبا بوجه من الوجوه كالشحم ، وهذا النوع يجوز للمحرم استعماله فى الادهان ونحوه ، ولاشىء عليه فى استعماله ،

والنوع الثالث : ما ليس طيبا فى نفسه ، ولكنه أصل للطيب كالزيت ، وهذا النوع يستعمل أحيانا على وجه التطيب والادهان ، ويستعمل أحيانا أخرى على وجه التَّدَاوى ، فإن استعمله المحرم استعمال التطيب والادهان كأنْ رَجَّلَ به شعر رأسِهِ فهو فى حكم الطيب يحرم على المحرم استعماله ، وإن استعمله على وجه التداوى كأنْ دَهَنَ به دُمَّلاً فى جسده كان ذلك جائزا لا شيء فيه .

وقال المالكية : الدهن إما أن يكون خاليا من الطيب وإما أن يكون ذا طيبٍ ، والادهان بكل منهما إما أن يكون لعذر وإما أن يكون لغير عذر ، فإن لم يكن للمحرم عذر فى الادهان حرم عليه الادهان مطلقا ، سواء أكان بما فيه طيب أم كان بما لا طيب فيه ، فإن فعل فعليه الفدية ، وإن كان به عذر كمرض جاز له أن يَدَّهن بما لاطيب فيه ولا فدية عليه ، سواءأكان المرض فى باطن كفيه أم فى الرجلين أم فى غير اليدين والرِّجْلَين .

وقال الشافعية : يحرم الادهان بما له رائحة طيبة مطلقا ، ويجوز الادهان بما ليس له رائحة طيبة فى جميع البدن ، إلا شعر الرأس والوجه فإنه لا يجوز إلا لعذر .

وقال الحنابلة : ماله رائحة طيبة يحرم على المحرم الادهان به فى سائر بدنه أو فى جزء منه ، وما ليس له رائحة طيبة كالزيت لا يحرم الادهان به فى أى جزء ، حتى شعر الرأس والوجه .

الخامس عشر مما لا يجوز للمحرم أن يفعله : التعرض لشجر الحرم بقَطْع أو قَلْع أو إتلاف ، أو لغصن من أغصان الشجر ولو كان الغصن واصلا إلى الحِلِّ ، وذلك بأن يكون أصل الشجرة فى حدود الحرم وأغصانها مترامية إلى ما بعد حدود الحرم ، أما الشجر المغروس فى الحل فإن كان مملوكا لأحد الناس حرم التعرض له بغير إذن صاحبه ، وإن لم يكن مملوكا لأحَدٍ جاز التعرض له والانتفاع به ولو وصلت أغصانه إلى الحرم ، فالعبرة فى الموضعين بأصل الشجرة . ومثلُ الشجر فى ذلك كله حشيشُ الحرمِ ، إلا الإذْخِرَ ، وهو نبت طيب الرائحة ، وإلا السَّنَا ، وهو المعروف بالسنامكى ، فإنه يباح التعرض لهما بالقطع وغيره : أما الأول فلرَعْيِ الإبل وغيرها ، وأما الآخر فللتداوى به .

ما يكره للمحرم : ويكره للمحرم أن يَشَمَّ الطيبَ أو يحمله ، بالاتفاق بين علماء المذاهب الأربعة ، أما المكث فى مكان فيه روائح عطرية فإنه مكروه عند المالكية والحنفية مطلقا ، أى سواء أقَصَد شمَّ الروائح العطرية أم لم يقصد ، وقال الحنابلة والشافعية : إن قصد شم الطيب بأن وضع وردة على أنفه بقصد شمها حَرُمَ عليه ذلك ، سواء أكانت الوردة معه أم كان هو بمكان فيه ورد ، وإن لم يقصد شمه فلا حرمة عليه .

ما يُبَاح للمحرم : ويُباح للمحرم الفَصْد والحِجَامة من غير حَلْق شعرٍ ، وخالف فى هذا المالكية فقالوا : يكره للمحرم أن يفتصد أو يحتجم لغير

حاجة ، فإن كانت به حاجة إلى أن يفتصد أو يحتجم جاز له ذلك ، ثم إن افتصد أو احتجم لحاجة فإن وضع على موضع الفصد أو الحجامة عصابةً فعليه الفدية ، وإن لم يَضَعْ على موضعهما عصابة فلا فدية عليه .

ويباح للمحرم أيضاً أن يَحُكَّ جلده وشعره ، بشرط ألا يترتب على ذلك سقوطُ شعره أوهوامِّ رأسه ، وخالف فى هذا الشافعية فقالوا : يكره للمحرم حك جلده أوشعره ، وإن ترتب على حك شعره سقوط الشعر كان حراما .

ويُباح للمحرم أيضاً أن يغسل رأسه وبَدَنَه بالماء لإزالة الأوساخ عنه بشرط ألا يغتسل بمايقتل الهوَام ؛ فيجوز له أن يغتسل بالصابون وغيره من المنظفات التى لا تقتل الهوام ، وخالف فى هذا المالكية فقالوا : لا يجوز للمحرم إزالة الوَسَخِ بالغَسْل ، ويستثنى من ذلك غَسْلُ اليدين فيجوز بما يزيل الوسخ كالصابون وغيره مما ليس بطيب ، فأما غسل اليدين بما له طيب تبقى رائحته فى اليد فلا يجوز ، والذين أجازوا إزالة الوسخ عن البدن بالاغتسال بما لا يقتل الهوام اختلفوا : هل يجوز أن يغتسل بما له رائحة ؟ فقال الشافعية والحنابلة : نعم يجوز له أن يغتسل بصابونٍ له رائحة ، وقال الحنفية : لا يجوز له ذلك .

* * *

العمل الثانى من أعمال الحج : الطواف ــ اعلم أولا أن الطواف على أربعة أنواع ، النوع الأول : الطواف الذى هو ركن من أركان الحج ،

ويسمى « طواف الإفاضة » وقد يسمى « طواف الزيارة » والنوع الثانى : طواف الحاج بالبيت إذا أراد أن يرجع إلى بلده بعد أن يكون قد أدى النسك ، ويسمى « طواف الصَّدَر » وقد يسمى « طواف الوَداع » والنوع الثالث : طواف الحاج بالبيت أولَ قدومِهِ مكة إن كان مُفرِدًا أو قارِنًا ، ويسمى « طواف القُدُوم » والنوع الرابع : طواف الحاج بالبيت فى أى وقت من أوقات إقامته بمكة إذا دخل البيت الحرام ، وهو تحية لهذا البيت العتيق ، ويسمى « طواف التحية » أو « طواف النفل » .

أما طواف الإفاضة فقد أجمع علماء المذاهب الأربعة على أنه ركن من أركان الحج ، إذا لم يفعله الحاجُّ بطل حَجُّه ، كما أجمعوا على أنه سبعة أشواط يُؤْتىٰ بها بكيفية خاصة ، غير أن الحنفية قالوا : ركن الحج من ذلك أربعة أشواط ، وهى التى لو تركها الحاج بطل حجه ، وأما ثلاثة الأشواط الأخرى فإنها واجبة وليست بركن ، ولو ترك الحاج هذه الثلاثة لم يبطل حجه .

واختلف علماء المذاهب الأربعة فى وقت طواف الإفاضة هذا :

فقال الحنفية : يبدأ وقتُ طواف الإفاضة من فجر يوم النحر بعد الوقوف بعرفة ، فإن لم يقف الحاج بعرفة فإن طواف الإفاضة لا يصح منه ، ويبطل حجه ، ولا نهاية لوقته عندهم ، غير أنه يشترط أن يأتى به فى أشهر الحج المعلومة وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة ، فلو وقف بعرفة يوم التاسع ساغ له أن يأتى بطواف الإفاضة فى أى وقت من الأيام الباقية من ذى الحجة

فإذا انقضى شهر ذى الحجة كله ولم يطف طواف الإفاضة كان عليه أن يَطُوفَه فى هذه الأشهر من سنة أخرى ويبقى مُحْرِمًا حتى يطوفه ، والأفضل عندهم أن يطوفه أولَ أيامِ النحرِ ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام « لما رمى جمرة العقبة ذبح وحلق ومشى إلى مكة فطاف للزيارة ، ثم عاد إلى مِنًى فصلى بها الظهر » ويجوز فعله فى كل أيام النحر ، ولو أخره عن أيام النحر لزمه شاة عند أبى حنيفة ، وقال أبو يوسف ومحمد : لا يلزمه شىء لأنه استدرك ما فاته .

وقال المالكية : إن طواف الإفاضة يبدأ وقته من يوم عيد النحر وينتهى بآخر ذى الحجة ، فإذا أخره الحاج عن ذلك الوقت لزمه دم وصح حجه ، ولا يصح الإتيان به قبل يوم النحر ، ولا يجزىء طواف القدوم عن طواف الإفاضة ، هذا كله هو المشهور فى مذهبهم ، وعندهم قول بأن تأخير طواف الإفاضة عن اليوم العاشر من ذى الحجة يلزم به دم ، كما أن عندهم قولا بأن طواف القدوم يجزىء عن طواف الإفاضة ويقوم مقامه .

وقال الشافعية : أول وقت طواف الإفاضة الذى هو ركن من أركان الحج بعد نصف الليل من ليلة النحر وهى ليلة العاشر من ذى الحجة ، ولا حدَّ لنهايته ، بل للحاج أن يؤخره إلى أى وقت شاء ، ولكن لا يحل له النساء إلى أن يطوف ، وأفضل وقته يومُ النحر .

وقال الحنابلة : يبتدىء وقتُ طوافِ الإفاضة بمنتصف ليلة العاشر من ذى الحجة ، بشرط أن يكون قد وقف بعرفة ، فلو طاف طواف الإفاضة

قبل الوقوف بعرفة بَطَلَ حجهُ ، ولا نهاية لوقته ، فعليه الإتيان به ما دام حيا ، ومذهبهم كمذهب الحنفية إلا فى تحديد بداية الوقت .

شروط الطواف : وللطواف بجميع أنواعه شروط لا يصح إلا بها ، ويختلف علماء المذاهب الأربعة فى عَدِّ هذه الشروط ، لذلك نرى أن نذكر لك الشروط التى اعتبرها علماء كل مذهب على حِدَة :

أما الحنفية فقالوا: يشترط لصحة الطواف أمران : أحدهما : أن يكون فى داخل المسجد الحرام ، ومعنى هذا أنه لو طاف حول الكعبة من وراء زمزم أو من وراء العُمُد جاز ما دام فى داخل المسجد الحرام ، أما إن طاف حول المسجد من خارجه فإنه لا يجوز ، والأمر الثانى : أن يكون فى وقت الطواف ، وهذا يختلف باختلاف نوع الطواف الذى يطوفه ؛ فإن كان يطوف طواف الإفاضة أو طواف الوداع فيشترط أن يكون بعد طلوع فجر يوم النحر ، بحيث لا يبدأ به قبله ، ولا حد لنهاية وقته ، وإن كان يطوف طواف القدوم فإن وقته يبدأ من حين دخول الحاج مكة ، وينتهى بوقوفه بعرفة ، فيجوز له أن يَطُوفَ طوافَ القدومِ ما لم يأتِ وقتُ الوقوف بعرفة ويقف بها ، فإن جاء وقت الوقوف بعرفة ولم يقف بها امتد وقت طواف القدوم إلى فجر النحر ، ولكن الحج يكون قد فاته .

وقال المالكية : يشترط لصحة الطواف ثمانية شروط : الأول: أن يكون سبعة أشواط ، والثانى : أن يكون متطهراً من الحدث الأصغر والحدث

الأكبر ومن النَّجَسِ ، والثالث : ستر العورة كما فى الصلاة ، والرابع : أن يجعل الكعبة عن يساره ، والخامس : أن يكون خارج الحِجْرِ والشَّاذَرْوَانِ ، والسادس : المُوَالاَة ، فلو فَرَّقَ بين أشواطه تفريقاً كثيراً بطل الطواف ، والسابع : أن يكون داخل المسجد ، فلا يصح على سطحه ولا خارجه ، والثامن : أن يبدأ طوافه من الحَجَرِ الأسود ، فلوابتدأه بعده لم يحسب له ما بين المكان الذى بدأ منه إلى الحجر ولزمه أن يتم سبعة أشواط يبدأ كل شوط من الحجر الأسود ، فإن لم يفعل وطال الفصل أو انتقض وضوؤه أعاده ، فإن رجع إلى بلده قبل أن يعيده بعث هَدْياً .

وقال الشافعية : يشترط لصحة الطواف ثمانية شروط ، الأول : ستر العورة التى يجب سترها فى الصلاة ، فإن طاف مكشوف العورة أو جزء منها بطل طوافه ، والثانى : الطهارة من الحدث والخبث ، والثالث : أن يبدأ من الحَجَرِ الأسود محاذياً له أو لجزء منه بجميع بدنه من جهة شقه الأيسر ، بأن لا يتقدم جزء من بدنه على جزء من الحجر الأسود ، الرابع : أن يجعل البيتَ الحرامَ عن يساره وقتَ الطوافِ مع كونه خارجاً بكل بدنه عن جدار البيت وعن الشاذروان وعن الحِجْرِ ، فلو مشى على الشاذروان أو دخل فى إحدى فتحتى الحِجْر وخرج من الأخرى لم يحسب له الشوط الذى فعل ذلك فيه ، كما لا يصح طواف من استقبل البيت فى مشيه أو استدبره أو جعله على يمينه أو جعله على يساره ولكن سار القَهْقَرَى (أى راجعاً

إلى وراء نفسه)، الخامس: أن يكون سبعة أشواط يقينا ، فلو شك فى عدد ما أتى به من الأشواط اعتبر الأقل وأتم سبعة الأشواط ، والسادس : أن يكون فى المسجد ولو فى هوائه أو على سطحه ، ولو مرتفعاً عن البيت ، ولو كان بينه و بين البيت حائل ، السابع : عَدَمُ صَرْفِهِ لأمر آخر غير الطواف ، فإن صرفه لأمر آخر بأن كان يدور حول البيت ليبحث عن بعض رفقته لم يعتبر، الثامن : نية الطواف عند محاذاة الحَجَرِ الأسود ، فلو نوى بعد ما ترك الحجر لم يحسب له ما طافه حتى ينتهى إليه .

و يزيد طوافُ القدومِ خاصةً شرطاً تاسعاً ، وهوأن يكون قبل الوقوف بعرفة ؛ فمن دخل مكة بعد الوقوف بعرفة و بعد منتصف الليل لم يطلب منه طواف القدوم .

وقال الحنابلة : يشترط لصحة الطواف عشرة شروط : الأول النية ، والثانى : دخول الوقت بالنسبة لطواف الزيارة وهو من نصف ليلة النحر لمن وقف بعرفة ، ولا يصح قبل الوقوف ، ولا نهاية لوقته ، على ما بينا من مذهبهم ، والثالث : ستر العورة كما فى الصلاة ، والرابع : الطهارة من الحدث والخبث كما فى الصلاة ، والخامس : كونه سبعةَ أشواطٍ يبتدىء كل واحد منها من الحجَرِ الأسود ، والسادس : المشى إذا كان قادراً عليه ، والسابع : الموالاة بين الأشواط ، والثامن : أن يكون بالمسجد لا خارجه ، و يصح على سطحه ، والتاسع : جعل البيت عن يساره ، والعاشر : أن يكون خارجا عن جميع الحِجْر والشَّاذَرْوَان .

سنن الطواف وواجباته : وللطواف سنن وواجبات ، ويختلف علماء المذاهب الأربعة في عدها ، فنرى أن نذكر لك كل مذهب على حدته .

قال الحنفية : واجبات الطّواف سَبْعَةُ أمور : أولها أن يبدأ طوافه من الحَجَرِ الأسود ، فلو لم يفعل ذلك وجَبَ عليه أن يعيد الطواف مادام بمكة ، فإن لم يُعده حتى رجع وجب عليه دم ، والأفضل عندهم ألا يترك شيئاً من الحَجَرِ الأسود ، بل يقابله بجميع بدنه(١) ، والأمر الثانى : التيامن ، وذلك بأن يطوف عن يمينه ممايلى الباب ، ويجعل الكعبة على يساره ، فلو نكس الطواف ـ بأن جعل الكعبة عن يمينه ـ وجب عليه أن يعيد الطواف فإن لم يعده وجب عليه دم ، والأمر الثالث : ستر العورة الواجب سترها فى الصلاة ، فلو انكشف ربع عضو مما يجب ستره وجبت عليه الإعادة ، فإن لم يعد فعليه دم ، والأمر الرابع : المشى فيه للقادر على المشى ، والأمر الخامس : أن يكون طوافه وراء الحطيم ـ وهو الحِجْر ـ لأن بعضه من البيت بغير شك ، والسادس : أن يكون سبعة أشواط يبدأ كل شوط من الحجر الأسود إلى الحجر الأسود ، والسابع : أن يصلى ركعتين بعد كل سبعة أشواط ، سواء أكان طوافه فرضاً أم واجباً أم سنة أم نفلا

ويستحب أداء هاتين الركعتين خلف المقام ، ثم فى الكعبة ، ثم فى الحِجْرِ تحت الميزاب ، ثم فى كل مايقرب من الحِجْر ، ثم فى المسجد ، ثم فى الحرم ،

(١) فى البحر : لما كان الابتداء من الحجر واجبا كان ابتداء الطواف من الجهة التى فيها الركن اليمانى قريبا من الحجر الأسود متعينا ؛ ليكون مارا بجميع بدنه على جميع الحجر الأسود

فإن صلاهما خارج الحرم أساء، ويقرأ فى الركعة الأولى الفاتحة و (قل يأيها الـكافرون) وفى الثانية الفاتحة وسورة الإخلاص (قل هو الله أحَدٌ) .

وكل واحد من هذه الواجبات لو تركه وجبت إعادة الطواف ، فإن لم يعدهُ فعليه دم .

وأماسنن الطواف عندهم فأربعة أشياء . الأول : طهارة الثوب والبدن والمـكان عن الخبث ، حتى لوطاف وعليه ثوب كله نجس فلا جَزَاء عليه ، لـكنه خالف السنة ، والثانى : أن يجعل قبل شروعه فى الطواف طَرَفَ ردائه تحت إبطِه اليمنى ويُلْقِي طرفه الآخر على كتفه الأيسر ، ويسمى هذا العمل اضطباعا ، ويصنع ذلك فى كل طوافٍ بعده سَعْىٌ كطواف القدوم ، وطواف العمرة ، والثالث : أن يسرع فى مشيه مع جعل خُطَاه متقاربة ويهز كتفيه ، ويسمى هـذا العمل رَمَلاً ، ويفعل ذلك فى الأشواط الثلاثة الأولى فقط ، فإن رأى شيئاً يعُوقُه فى أثناء رَمَلِهِ وقف حتى يتمكن من الرمل ، والرابع : أن يستلم الحجر الأسود ويقبله عند نهاية كل شوط ، فإن لم يستطع استلامه بيده استلمه بعَصاً ونحوها ، فإن لم يستطع ذلك استقبل الحجَرَ بوجهه ورفع يديه وَوَجّه بطونها إلى الحجر ، ويكبر ، وَيهلل ، وَيحمد الله تعالى ، وَيصلى على النبى صلى الله عليه وَسلم

وَهذا الاستقبال مستحب ؛ وَاستلام الركن اليمانى مستحب أيضاً ؛ وَمما يستحب أيضاً : أن يدعو عقيب ركعتى الطواف خلف المَقَام بمـا يحتاج إليه

من أمور الدنيا والآخرة ؛ وَأن يأتى بئر زمزم بعد صلاة ركعتين وَقبل الخروج إلى الصفا فيشرب منها و يتضَلّع ، و يفرغ الباقى فى البئر و يقول : اللَّهُمَّ إنى أسْأَلُكَ رِزْقاً وَاسِعاً ، وَعِلْماً نَافِعاً ، وَشِفَاءً مِنْ كلِّ دَاءٍ .

وَقال الشافعية : وَاجبات الطواف أربعة : أن يَصُونَ نفسه عن كل مخالفة فى وَقت الطواف ، وأن يصون قلبه عن احتقار أحدٍ ممن يراه ، وأن يلتزم الأدب ، وأن يحفظ يده و بصره عن كل معصية .

وسننه عندهم ثمانية أشياء : الأول : أن يستقبل البيت فى أول طوافه و يقف بجانب الحجر إلى جهة الركن اليمانى بحيث يصير جميع الحجر عن يمينه ومنكبه الأيمن عند طرفه ، وحينئذ ينوى الطواف ، ثم يمشى مستقبلا الحجر مارا إلى جهة الباب ، فإذا جاوزه رجع وجعل يساره إلى البيت ، وهذا الأمر خاص بالشوط الأول من الطواف ، الثانى : المشى مع القدرة ، و يستوى فى ذلك الرجل والمرأة ؛ فإن عجز عن المشى فلا بأس أن يطوف محمولا ، و يكره له أن يطوف راكباً على دابة صيانةً للمسجد عن الدابة ، ثم الأفضل أن يطوف حافياً إلا أن يتأذى بذلك ، و يندب أن يضيق خطواته ، وَأن يلمس الحَجَرَ الأسود بيده فى أول طوافه ، وَيقبله ، وَتقبيل الحجر ليس بمندوب فى حق المرأة إلا عند خلو المطاف ، فإن عجز الرجل عن الاستلام بيده استلمه بعصا ونحوها وَ يقبل ما أصابه به ، فإن عجز عن ذلك أيضا أشار إليه بيده ، وَالإشارة إليه باليد اليمنى أفضل ، و يفعل ذلك فى كل

شَوْطٍ من أشواط الطواف ، الثالث : أن يدعو بالدعاء المأثور ، وذلك بأن يقول عند ابتداء كل شوط : بِسْمِ الله ، والله أكبر — ويرفع يديه كما يرفعهما عند التكبير فى الصلاة — اللَّهُمَّ إيمَانًا بِكَ ، وَوَفَاءً بِعَهْدِكَ ، واتِّبَاعًا لِسُنَّةِ نَبيِّكَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، الرابع : أن يمشى مُسْرِعًا من غير عَدْوٍ ولا وَثْبٍ فى ثلاثة الأشواط الأولى ويمشى فى الأربعة الباقية على هينة ، وهذا خاصٌّ بالرجل ، فأما المرأة فالسنة فى حقها أن تمشى على عادتها فى المشى ، الخامس : أن يضطبع ، وذلك بأن يَضَعَ وسط ردائه تحت منكبه الأيمن وطرفَيْهِ فى منكبه الأيسر ، وهذا أيضاً خاص بالرجل ، والسادس : أن يكون قريباً من البيت عند عدم الزّحام ، وهذا أيضاً خاص بالرجل ، فأما المرأة فالسنة فى حقها ألا تقرب من البيت صيانَةً لها ، والسابع : الموالاة فى الأشواط ، والثامن : أن يصلى بعده ركعتين ، ويندب له أن يجعل هاتين الركعتين عقب الطواف مباشرة وأن يستلم الحَجَر الأسود بعدهما ، والأفضل أن يصليهما خلف المقام ، ثم فى الحِجْر ، ثم فيما قرب من البيت .

وقال المالكية : للطواف واجبان : أحدهما المشى فيه مع القدرة ، وثانيهما صلاة ركعتين بعده .

وله خمس سنن : الأولى : تقبيل الحجر الأسود فى الشوط الأول ، ويُكَبر عند ذلك ، فإن لم يتمكن من تقبيله لَمَسَه بيده ، فإن لم يستطع لمسه بعُودٍ مثلا ، ثم يضع يده أو العود الذى لمس به الحَجَر على فَمِهِ ويكبر ،

فإن لم يستطع استلام الحجر بيده ولا لمسه بعود اكتفى بالتكبير عند محاذاة الحجر ، السنة الثانية : استلام الركن اليمانى بيده فى الشوط الأول ، والسُّنَّةُ الثالثة : الدعاء فى الطواف ، وليس للدعاء صيغة مخصوصة ، بل يدعو بما شاء ، والرابعة : الرمَل ، وهو : أن يمشى فى ثلاثة الأشواط الأولى مَشْياً أسْرَعَ من مشيه المعتاد ، وهذه السنة خاصة بالرجال ، أما النساء فيسن فى حقهن أن يَسِرْنَ على عادتهن ، والخامسة : أن يكون قريباً من الكعبة ، وهذا خاص بالرجال أيضا ، أما النساء فالسنة فى حقهن أن يَطُفْنَ خلف الرجال كما فى الصلاة .

وليس للطواف واجبات عند الحنابلة ، وله عندهم ثمان سنن : الأولى : استلام الحجر الأسود وتقبيله فى كل شوط إن تيسر له ذلك ، والثانية : استلام الركن اليمانى بيده اليمنى فى كل شَوْطٍ أيضاً ، والثالثة : الاضطباع فى طواف القدوم ، والاضطباع : أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه الأيمن وطرفيه على كتفه الأيسر ، والرابعة : الرمَلُ ، وهو : أن يسرع فى مشيه مع مقاربة الخُطى وذلك فى ثلاثة الأشواط الأولى من طواف القدوم لغير الراكب والمعذور والمحرم من مكة أو من مكان قريب منها ، وهذا خاص بالرجل ، الخامسة : الدعاء ، وذلك بأن يقول عند استقباله الحجر الأسود : بسم الله ، الله أكبر ، اللهم إيماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقول بين الركن اليمانى والحجر

الأسود : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ، ويقول فى بقية طوافه : اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجًّا مَبْرُوراً ، وسَعْياً مَشْكُوراً ، وَذَنْباً مَغْفُوراً ، رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ ، واهْدِنِى السَّبِيلَ الأَقْوَمَ ، وتَجَاوَزْ عَمَّا تعلم ، وأنْتَ الأعز الأَكْرَمُ ، السادسة : أن يكون طَوَافُه قريباً من الكعبة ، السابعة : أن يصلى ركعتين بعد الطواف يقرأ فى الركعة الأولى فاتحة الكتاب وسورة الكافرين ، وفى الركعة الثانية فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص ، ويجوز له أن يصليهما فى أى مكان ، لكن الأفضل أن يصليهما خلف مقام إبراهيم .

كيفية الطواف : وإذ قد عرفت الأحكام الشرعية المتعلقة بالطواف فى مذاهب الأئمة الأربعة ، فإنا نرى أن نصف لك كيفيه الطواف المطابقة لما بيناه لك ، فإذا أنت أتيت بالطواف على الوجه الذى نشرحه لك وقع طوافك مُجْزِئاً صحيحاً عند الأئمة كلهم ، فنقول :

(١) إذا أنت دنوت من مكة المكرمة فإن السنة أن تدخلها من أعلاها ، وأعلاها هو الجهة المعروفة بباب المعلى ، وقل عند دخولك مكة : اللَّهُمَّ هَذَا حَرَمُكَ وَأَمْنُكَ ، اللَّهُمَّ إنَّكَ قُلْتَ وقَوْلُكَ الْحَقُّ (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) اللَّهُمَّ فَحَرِّمْ لَحْمِى ودَمِى عَلَى النَّارِ ، وَقِنِى عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ .

(٢) ثم اذهب وأنت متطهر وثيابُكَ وبَدَنُكَ طاهران ، إلى البيت الحرام فادْخُلْه من الباب المسمى « باب بنى شيبة » ولْتَدْخُلِ الْمَسْجِدَ حَافِياً إنْ لم

يكن فى ذلك ضرر عليك . وقل عند دخولك : بسم الله ، و بالله ، ومن الله ، و إلى الله ، اللَّهُمَّ افتَحْ لى أبْوَابَ رَحْمَتِكَ ، بِسْمِ اللهِ ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ ، الحمدُ للهِ الَّذِى بَلَّغَنِى بَيْتَهُ الحرَامَ ، اللَّهُمَّ افتَحْ لِى أبْوَابَ رَحْمَتِكَ ومَغْفِرَتِكَ وَأَدْخِلْنِى فِيهَا ، وَأغْلِقْ عَنِّى أبْوَابَ مَعْصِيَتِكَ وَجَنِّبْنِى الْعَمَلَ بِهَا

(٣) فإذا أنت رأيت البيت الحرام — وهو الكعبة — فارفع يديك كما ترفعهما عند التكبير فى الصلاة ثم قل : اللَّهُمَّ أنْتَ السَّلَامُ ، ومِنْكَ السَّلَامُ ، حَيِّنَا رَبَّنَا بِالسَّلَامِ ، وَأَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ دَارَ السَّلَامِ ، اللَّهُمّ زِدْ بَيْتَكَ هَذَا تَشْرِيفاً ومَهَابَةً وَتعظِيماً ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِى ، وأَقِلْنِى عَثْرَتِى ، واغفِرْ خَطِيئَتِى ، يا حَنَّانُ يا مَنَّانُ . اللَّهُمْ زِدْ مَنْ عَظَّمَ بَيْتَكَ وَشَرَّفَهُ مِمَّنْ حَجَّهُ واعْتَمَرَهُ تَعْظِيماً وَتَشْرِيفاً وتكريماً ومَهَابَةً و بِرًّا ، الحمدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَمْداً كثيراً كَمَا هُوَ أهْلُه وكَمَا يَنْبَغِى لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ عَزَّ جَلَالُه ، والحمدُ للهِ الَّذِى بَلَّغَنِى بَيْتَهُ ورَآنِى أهْلاً لِذَلِكَ ، والحمدُ لله على كل حال ، اللَّهُمَّ إنَّكَ دَعَوْتَ إلَى حج بَيْتِكَ الْحَرَامِ ، وَقَدْ جِئْتُكَ لِذَلِكَ ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّى ، واعْفُ عَنِّى ، وأَصْلِح لِى شأنِى كلَّهُ

(٤) ثم اذهب فحاذِ الحجرَ الأسود ببدنك كله ، وقَبِّلْه إن استطعت ، فإن شق عليك أن تستلمه وتقبله بفمك فمُدَّ يَدَكَ إليه وضَع يدك عليه وقبل يَدَكَ ، فإن شق عليك هذا أيضاً فامْدُدْ عصاً إن كانت معك وضَعْها عليه

ثم قَبِّلِ العصا ، فإن شق ذلك عليك أيضاً أو لم يكن معك عصا فأشرْ إلى الحجر الأسود بيدك اليمنى ولا تقبل يَدَكَ حينئذ

واعلم أن كل حالة من هذه الحالات مجزئة عنك ، وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كل واحدة منها ، ثم اعلم أن المزاحمة ودَفْعَ إخوانك الطائفين بالبيت مكروهان فاجتنبهما

(٥) وقل عنداستقبالك الحجر الأسود : بسم الله ، والله أكبر ، اللَّهُمَّ إيماناً بك ، وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعاً لسنة نبيك محمدٍ صلى الله عليه وسلم

(٦) ثُمَّ اجعل الكعبة عن يَسَارِكَ وطُفْ حَوْلَهَا ، فإذا كنت من غير أهل مكة فأسرع السير فى ثلاثة الأشواط الأولى إن استطعت ذلك ، ولا تَنْسَ أن تستلم الحجر الأسود والركن اليمانى فى كل شوط من أشواط الطواف إن استطعت ، ولا تستلم الركن الشامى ولا الركن الغربى لأنهما واقعان فى وسط الكعبة على ما هو بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام كما بيناه لك فى مبحث بناء الكعبة

(٧) فإذا كنت بين الحجر الأسود والركن اليمانى فقل : رَبَّنَا آتِنا فى الدنيا حَسَنَةً ، وفى الآخرة حَسَنَةً ، وقِنا عَذابَ النَّارِ

(٨) فإذاجاوزت الركن اليمانى فقل : اللَّهم اجعلهُ حَجاً مَبْرُوراً ، وسعياً مَشكوراً ، وذنباً مغفوراً ، ربِّ اغفِرْ وارحمْ ، واُهْدِنى السَّبِيل الأقومَ ، وتجاوزْ عما تعلمُ ، وأنت الأعز الأكرم

(٩) واحذر أن تطوف على الشاذروان أو تطوف من داخل الحِجْرِ ؛ لأن شاذروان الكعبة وحجر إسماعيل جزءان من الكعبة ، فإذا فعلت ذلك لم تكن طفت بالبيت كله وكنت كَمَنْ طاف فى داخل الكعبة ، وذلك غير مجزىء ولا كافٍ

(١٠) فإذا أتممت الأشواط السبعة كلها على الوجه الذى بيناه لك فاذهب إلى مقام إبراهيم فصلِّ خلفه ركعتين ، واقرأ فى الركعة الأولى فاتحة الكتاب وسورة (قل يأيها الكافرون) واقرأ فى الركعة الثانية فاتحة الكتاب وسورة (قل هو الله أحد) فإن لم تستطع أن تصلى هاتين الركعتين خلف مقام إبراهيم فصَلِّهما حيث قدرت

(١١) ثم قل عقيب الفراغ من هاتين الركعتين : اللهم هذا مقامُ الْعَائِذِ بك من النارِ ، فاغفرلى ذنوبى إنك أنت الغفورُ الرحيمُ .

(١٢) فإذا أنت أتممت الركعتين فارجع إلى الركعبة واستلم الحجَرَ الأسود كما كنت تستلمه فى أشواط الطواف ، فإذا فعلت ذلك كله فقد تم طوافك

* * *

السعى بين الصفا والمروة : ذهب الأئمة مالك والشافعى وأحمد بن حنبل إلى أن السعى بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج ، بحيث لو ترك الحاجُّ السعىَ بينهما بطل حَجُّه ، وذهب أبو حنيفة إلى أن السعى بين الصفا والمروة واجبٌ من واجبات الحج ، وليس بركن ، ومعنى هذا أنه لو تركه الحاج لم يبطل حجه ، ولكن تجب عليه فدية .

شروطُ السعى وواجباته وسننه ومكروهاته : وللسعى بين الصفا والمروة شروط وواجبات وسنن ، وعلماء المذاهب يختلفون فى عَدِّ هذه الأشياء ، لذلك نجد الأفضل أن نبين لك كل مذهب من المذاهب الأربعة على حِدَةٍ ، ثم نبين لك كيفية السعى موافقة لما عليه المذاهبُ الأربعة ، على نحو ما فعلناه فى الكلام على الطواف بالبيت الحرام ، فنقول :

قال الحنفية : إن للسعى بين الصفا والمروة واجبات ، وشرطا واحدا ، وسننا:

فأما واجباته فثلاثة : الأول : أن يسعى سبعة أشواط ، وكل شَوْطٍ من الأشواط السبعة واجب على حدته ، والثانى : أن يكون ما شيا إن قدر على المشى ، والثالث : أن يبدأ سَعْيَهُ بالصفا ويَخْتِمه بالمروة ، فإن بدأ بالمروة لم يحسب الشوط الذى بدأه بالمروة ، والسعى من الصفا إلى المروة شَوْطٌ ، والْعَوْدُ من المروة إلى الصفا شَوْطٌ آخر ، وقال الطحاوى : العودُ من المروة إلى الصفا ليس بشَوْط ، ويُشْتَرَط عنده البُدَاءةُ فى كل شوط من الصفا والختم به ، والأول هو الأصح ، لأنه المنقول المتوَارث ، ولئلا يتخلل بين كل شوطين مالا يُعْتَد به ، والأَصْلُ فى العبادات الاتصال كأشواط الطواف وركعات الصلاة .

وأما شرطه فهو أن يكون السعى بعد الطواف بالبيت ، فلو سعى أولاً ثم طاف بعد ذلك لم يعتدَّ بسعيه ويجب عليه أن يعيد السعى مادام يمكنه .

وأما سنن السعى فستة : الأولى : أن يُوَالى بين الطواف والسعى ، فلو فصل بين الطواف والسعى كان تاركا للسنة ، وليس عليه جزاء ،

الثانية : أن يكون متطهرا ، فيصح السعى بين الصفا والمروة للحائض والنفساء ولا كراهة عليهما فى ذلك ، والثالثة : أن يصعد على الصفا وعلى المروة و يستقبل البيت الحرام متى صعد على كل منهما ، والرابعة : أن يُهَرْوِل بين الميلين الأخضرين — وهما عمودان قد أقيما فى الطريق بين الصفا والمروة : أحدهما تحت المنارة التى عندباب على ، والثانى قُبالة رباط العباس ، وقد ذكرنا لك شأنهما فى مبحث الصفا والمروة — والخامسة : أن يكبر و يهلل و يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم و يدعو ، والسادسة : أن يستلم الحجر الأسود بيده إن استطاع قبل الذهاب إلى السعى ، وقد ذكرنا لك هذا فى بيان كيفية الطواف .

وأما ما يندب فى السعى فهو أن يرفع يديه إلى جهة السماء عند الدعاء .

وأما ما يكره فى السعى بين الصفا والمروة فهو الحديث فى البيع والشراء ونحوهما فى أثناء السعى .

وقال المالكية : للسعى بين الصفا والمروة واجب واحد ، وله شروط صحة ، وسنن ، ومندوبات :

أما واجبهُ عندهم فهو : أن يكون الساعى ماشيا إن قدر على المشى .

وأما شروط صحته عندهم فأربعة : الأول : أن يكون سبعة أشواط ، فإن سعى أقل من ذلك لم يجزئه ، وعليه أن يكمل سبعة الأشواط ما لم يُطُلِ الفَصْلُ ، فإن طال الفصلُ عرفا ابتدأ السعى من جديد ، والثانى : أن يبدأ السعى بالصفا ، فإن بدأ بالمروة لم يحسب ذلك الشوط ، وعندهم أن

الذهاب من الصفا إلى المروة شوط ، والعَوْدَ من المروة إلى الصفا شوط آخر ، والثالث : الموالاة بين أشواط السعى ، والرابع : أن يكون السعى بعد طَوَافٍ ، سواء أكان الطواف ركنا أم لم يكن .

وأما سننه فخمسة : الأولى : تقبيل الحجر الأسود قبل أن يخرج إلى السعى بعد تمام الطواف وصلاة الركعتين ، والثانية : اتصاله بالطواف بأن يفعله عقب الفراغ منه ومن صلاة ركعتيه ، والثالثة : الصعود على كل من الصفا والمروة عند الوصول إليه فى كل شوط ، ويسن للنساء إذا كان على الصفا أو المروة زحمة رجال ألا يَصْعَدْنَ فوقها ، والرابعة : أن يدعو فوق الصفا والمروة بما أحب ، والخامسة : أن يسرع السير بين الميلين الأخضرين فى حال ذهابه من الصفا إلى المروة ، أما فى حال عَوْده من المروة إلى الصفا فلا يسرع ، وهذا خاص بالرجال .

وأما مندوبات السعى بين الصفا والمروة فأن يكون على طهارة تامة ، وأن يكون ثوبه وبدنه طاهرين ، وكل ما كان شرطا فى صحة الصلاة وأمكن فى السعى كَسَتْرِ العَوْرة فهو من مندوبات السعى ، أما ما لم يمكن فى السعى من شروط صحة الصلاة كاستقبال القبلة فليس مندوبا فى السعى .

وقال الشافعية : للسعى شروط صحة ، وسنن ، ومكروهات :

فأما شروط صحته فثلاثة : الأول : البدء بالصفا ، ويعتبر الذهاب من الصفا إلى المروة شوطا ، والعود من المروة إلى الصفا شوطا آخر ، والثانى :

أن يكون سبعة أشواط يقينا ، والثالث : أن يقع بعد طواف الإفاضة أو القدوم بشرط ألا يتخلل بين الطواف والسعى الوقوفُ بعرفة ، فلو طاف للقدوم ثم ذهب إلى عرفات فإنه ينبغى له أن يؤخر السعى بين الصفا والمروة حتى يطوف طواف الإفاضة ، وقد عرفت فيما مضى أن طواف القدوم هو الطواف الذى يفعله المحرِمُ بالحج أولَ قدومه على مكة ، وأن طواف الإفاضة هو الطواف الذى يفعله الحاجُّ بعد نُزوله من عرفات وَوقوفه بالمزدلفة وذهابه إلى مِنًى .

وأما سنن السعى عندهم فسبعة : الأولى : أن يخرج إليه من باب الصفا ، والثانية : أن يصعد على الصفا حتى يرى الكعبة ، وهذا خاص بالرجال ، فأما النساء فلا يُسَنُّ لهن الصعود إلا إذا كان المكان خاليا من الرجال الأجانب ، والثالثة : أن يذكر الله تعالى عند الصفا وعند المروة بالذكر المأثور ، وسنذكره لك عند بيان كيفية السعى ، والرابعة : أن يكون على طهارة كاملة وأن يكون ثوبه وبدنه طاهرين وأن يكون مستور العورة ، والخامسة : ألا يركب إلا من عذر ، والسادسة : أن يُهَرْوِلُ بين الميلين فى الذهاب وفى الإياب إلا لعذر ، وهذا خاص بالرجال ، والسابعة : اتصالُ السعىِ بالطواف واتصالُ بعضِ أشواطه ببعض .

وقال الحنابلة : للسعى بين الصفا والمروة شروط صحة ، وسنن :

أما شروط صحته فثمانية ، الأول : النية ، والثانى : العقل ، والثالث :

الموالاة بين أشواطه ، والرابع : المشى فيه للقادر على المشى ، والخامس : أن يكون السعى بعد الطواف ولو كان الطواف مندوباً ، والسادس: أن يكون السعى سبعة أشواط كاملة ، والسابع : أن يقطع المسافة التى بين الصفا والمروة كلها ، و يتحقق ذلك بأن يلصق عَقِبَ رِجْلَيْه بأسفل الصفا ثم يسير إلى المروة حتى يلصق أطراف أصابع رجليه بأسفل المروة ، و يفعل مثل ذلك فى العَوْدة من المروة إلى الصفا ، والثامن : أن يبدأ بالصفا و يختم بالمروة ، فإن بدأ بالمروة لم تحسب له تلك المرة .

وأما سننه فثلاثة : الأولى : أن يكون على طهارة كاملة وأن يكون ثوبه و بدنه طاهرين ، والثانية : أن يكون مستور العورة ، والثالثة : أن يُوَالِىَ بين الطواف والسعى .

كيفية السعى بين الصفا والمروة : إذا أنت طُفْتَ بالبيت الحرام سبعة أشواطٍ ، ثم صليت ركعتين خلف مقام إبراهيم أو فى المكان الذى تتيسر لك الصلاة فيه ، ثم استلمت الحجر الأسود بعد الصلاة ؛ فاذهب إلى السعى بين الصفا والمروة ، وأنت متطهر وثيابُكَ طاهرة ، و يجوز لك أن تخرج من أى باب من أبواب المسجد شئت ، ولكن الأفضل أن تخرج من الباب الذى كان يسمى فيما مضى باب بنى مخزوم ، وهو الآن يسمى « باب الصفا » و إنما كان الأفضل أن تخرج من هذا الباب لأن النبى صلى الله عليه وسلم خرج للسعى بين الصفا والمروة منه ، ولأن هذا الباب أقربُ أبواب المسجد إلى الصفا

(١) فإذا خرجت من هذا الباب فخذ فى طريقك إلى الصفا ، فإذا بَلَغْتَه فاصْعَد عليه حتى تستطيع رؤية البيت الحرام ، فإذا رأيت البيت الحرام فأَدِرْ وَجْهَكَ نحوه ، وكبر الله تعالى ، وارفع يديك كما ترفعهما فى الصلاة ، وهَلِّل ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك بأن تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد ، الحمدُ للهِ على ما هدانا ، والحمد لله على ما أولانا ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ ، ونَصرَ عَبْدَهُ ، وهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

ثم ادْعُ الله تعالى بما شئت من الدعاء ، والأفضل أن تَدْعُوَ بدعاء ابن عمر — رضى الله تعالى عنه وعن أبيه ! — وهو : اللَّهُمَّ اُعْصِمْنِى بِدِينِك وَطَوَاعِيَتِك وطَوَاعِيَةِ رسولك ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِى مِمَّنْ يُحِبُّكَ وَيُحِبُّ مَلَائِكَتَكَ وَعِبَادَكَ الصَّالِحِينَ ، اللَّهُمَّ يَسِّرْنِى لِلْيُسْرَى ، وَجَنِّبْنِى لِلْعُسْرَى ، وَاغْفِرْ لِى فِى الآخِرَةِ وَالْأُولَى ، وَاجْعَلْنِى مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَّقِينَ ، وَاجْعَلْنِى مِنْ وَرَثَةِ جنة النعيم ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ قلت (اُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ) وَإِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، اللَّهُمَّ إِذْ هَدَيْتَنِى لِلْإِسْلَامِ فَلَا تَنْزِعْنِى مِنْهُ وَلَا تَنْزِعْهُ مِنِّى حَتَّى تَتَوَفَّانِى عَلَى الإِسْلَامِ ، اللَّهُمَّ لا تُقَدِّمْنِى لِلعَذَابِ ولا تُؤَخِّرْنِى لِسُوءِ الْفِتَنِ

وكان ابن مسعود إذا سعى بين الصفا والمروة قال: رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ، وَاعْفُ عَمَّا تَعْلَمُ، وَأَنْتَ الأعَزُّ الأَكْرَمُ.

(٢) فإذا أنت قلت ذلك فوق الصفا فانزل، ثم ضَعْ عقب قدميك حتى تلصقهما بأسفل الصفا. ثم سِرْ ماشياً على عادتك فى المشى إلى أن تبلغ الميلَ الأخضر فاسْعَ سَعْياً شديداً حتى تبلغ الميل الأخضر الثانى. فإذا بلغته فَسِرْ على عادتك فى السَّيْر إلى أن تبلغ المروة. فإذا بلغت المروة فضَعْ أطراف أصابع رجليك حتى تلصقها بأسفله.

(٣) ثم اصعد المروة حتى تُعاين البيت الحرام، فإذا عاينته فاتجه إليه ثم قل مثل ما قلت فوق المروة. فإذا فعلت هذا فقد تم لك شوط من أشواط السعى.

(٤) ثم انزل من فوق المروة وألصق عقب قدميك بأسفله. وسِرْ على عادتك إلى أن تبلغ الميل الأخضر. فإذا أنت بلغته فاشْتَدَّ فى سيرك حتى تبلغ الميلَ الأخضر الآخر، فإذا بلغته فسر على عادتك حتى تبلغ الصفا.

ثم اصعد فوق الصفا وقُلْ كما قلت أولاً. وهكذا فى الأشواط السبعة كلها وذهابُكَ مِنَ الصفا إلى المروة شوط. وعَوْدُك من المروة إلى الصفا شوط آخر، بإجماع المذاهب الأربعة. إلا رأياً للطحاوى فى مذهب أبى حنيفة. فإنه يَعُدُّ الذهاب من الصفا إلى المروة شوطاً، ولا يعد العَوْدَ من المروة إلى الصفا شوطاً آخر. ويَشْتَرِط فى كل شوط أن يُبْتَدَأ من الصفا؛ فيترتب عليه أن يتخلل بين أجزاء السعى ما ليس منها؛ وهو خلاف

المألوف فى العبادات . هذا فوق أن المتوارث من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم هو ما ذكرناه أولا .

***

الوُقوف بعرَفة : والوقوف بعرفة ركن الحج الأعظم ، حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم جَعَلَ الوقوفَ بعرفة هو الحج فى قوله « الْحَجُّ عَرَفَةُ » ولا يختلف فى كونه ركنا أحَدٌ من علماء الإسلام ، والمراد من الوقوف بعرفة الحضورُ بأرض عرفة على أى حالٍ من الأحوال ؛ نعنى سواء أكنت نائما أم كنت يَقْظَانَ ؛ وسواء أقعدت أم قمت ؛ وسواء أكنت ماشيا أم واقفا ؛ وللوقوف بعرفة شروط وواجبات وسنن ؛ وعلماء المذاهب يختلفون فى عَدِّ هذه الأمور فنرى الأفضل والأقرب إلى الوضوح أن نبين لك كل مذهب على حِدَة ؛ فنقول .

قال علماء الحنفية : للحضور بعرفة شرط واحد ، وَوَاجب وَاحد وَله سنن :

أما شَرْطُه فهو : أن يكون حضور الحاج عرفة فى وقته الذى حَدَّده الشرع ، وهو ما بعد زوال الشمس فى اليوم التاسع من شهر ذى الحجة إلى طلوع فجر اليوم العاشر منه ؛ فلو جاء عرفة قبل زوال الشمس من اليوم التاسع ثم غادرها أو جاءَ بعد طلوع فجر اليوم العاشر فقد فاته الحج ولم يعتد

بحضوره ، قالوا : ولا يشترط لصحة الوقوف بعرفة نية ولا علم بأن هـذا المكان عرفة ولا أن يكون الحاضر بها عاقلا .

وأما واجبه فهو أن يتمهل وينتظر بعرفة إلى أن تغرب الشمس من يوم التاسع ؛ هذا إذا جاء عرفة نهارا ؛ أما إذا جاءها بعد غروب الشمس فلا يجب عليه شيء ، ولو حضر عرفة بعـد زوال الشمس من يوم التاسع ثم دَفَعَ منها قبل غروب الشمس فقد صَحَّ وقوفُه لـكن يجب عليه دم .

وأما سنن الوقوف بعرفة فإحدى عشرة خَصْلَةً : الأولى : أن يغتسل له ، والثانية : أن يخطب الإمام خطبتين ، والثالثة : أن يجمع بين صلاتى الظهر والعصر ، والرابعة : أن يعجل الوقوف بعد الصلاة ، والخامسة : أن يكون مفطرا ، والسادسة : أن يكون على طهارة كاملة ، والسابعة : أن يكون راكبا راحلة ، والثامنة : أن يكون وراء الإمام قريبا منه على قدر إمكانه ، والتاسعة : أن يكون حاضر القلب متفرغا للدعاء ، والعاشرة : أن يقف عند الصخرات السود أو قريبا منها على قدر إمكانه ، والحادية عشرةَ : أن يرفع يديه مبسوطتين ويحمد الله ويهلِّلَه ويكبره ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ويدعو الله تعالى ويلبى ويكثر من الاستغفار لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ، وليس للدعاء عندهم صيغة مخصوصة .

وقال المالـكية : ركن الحج هو الحضور بعرفة فى أى جزء منها على أى حال كان لحظةً واحدةً فيما بين غروب شمس اليوم التاسع من ذى الحجة

إلى طلوع فجر اليوم العاشر ، غير أن الذى يحضر عرفة إما أن يكون ماراً بها وإما أن يكون واقفا ، فإن كان ماراً فقد أدى ركن الوقوف إذا اجتمع فيه شرطان : أحدهما أن يكون عالماً بأن هذا المكان هو عرفة ، وثانيهما أن ينوى بمروره هذا أداء ركن الحج ، فإن مر بها غير عالم بأنها عرفة أو لم ينو بهذا المرور أداء ركن الوقوف بعرفة لم يكفه ذلك ولم يتمَّ حجه ، فأما غير المار ـ وهو اللابث بعرفة ـ فلا يشترط فيه العلم ولا النية ، فلو مكث بها وهو نائم أو مغمى عليه تم وقوفه .

وللوقوف بعرفة عندهم واجبات ومندوبات وسنن :

أما واجباته عندهم فشيآن : الأول : أن يطمئن فى حضوره أى يتمهل ويتأنَّى ، فإن لم يفعل ذلك لزمه دمٌ ، والثانى : أن يكون وقوفه بعد زوال شمس اليوم التاسع إلى ما بعد الغروب ، فإذا ترك ذلك بغير عذر لزمه دم .

ويندب للوقوف بعرفة خمسة أمور : الأول أن يسير إليها بعد طلوع شمس اليوم التاسع ، والثانى : أن ينزل متى وصل عرفة بالموضع الذى يسمى « نَمِرة » وقد ذكرناه وذكرنا مسجد نمرة عند الكلام على عرفات ومشاهدها ، والثالث أن يغتسل للوقوف بعرفة ، والرابع : أن يطيل التضرع والابتهال إلى الله تعالى ودعاءه سبحانه ، والخامس : أن يكون قائما لا قاعدا راكبا لا راجلا ، إلا أن يكون به عذر يمنعه من ذلك ، وهذا خاص بالرجال ، فأما النساء فلا يندب لهن القيام .

وسنن الوقوف بعرفة أمران : الأول : أن يجمع بين صلاتى الظهر والعصر فى وقت الظهر بعرفة ، والثانى : أن يخطب الإمام خطبتين يُعَلِّم فيهما الناسَ ما يفعلونه بعرفة وما بقى عليهم من مناسك الحج ، ويبدأ الخطبة بُعَيْدَ زوال الشمس من يوم التاسع ، فإذا انتهى من خطبته أخذ المؤذنون فى الأذان لصلاة الظهر والإقامة لها ، فإذا انتهوا منهما نَزَل فصلى بالناس الظهر ، ثم يؤذنون ويقيمون للعصر ، ثم يصليها بهم ، ويفعل ذلك ولو كان اليومُ يوم جمعة ، وعلى هذا لا جمعة على الناس فى يوم عرفة ، وإنما عليهم الظهر ، فإذا تم ذلك كله انصرف الناس للوقوف إلى أن تغرب الشمس ، ومتى غربت الشمس ودخل الليل وهم بعرفة فقد حصل للناس ركنُ الوقوف بعرفة كما حصل الواجب بحضورهم نهاراً .

وقال الشافعية : للوقوف بعرفة شروط وسنن :

أما شروطه فأمران : الأول : أن يكون الحضور إلى عرفة فى الوقت الذى عينه الشارع ، ووقت الوقوف يبتدىء من زوال الشمس من يوم التاسع إلى طلوع فجر اليوم العاشر ، ويكفى الحضور من هذا الوقت ولو لحظة ، والثانى : أن يكون الحاضر أهلا للعبادة ، وذلك بأن يكون عاقلا غير زائل العقل بسكر ونحوه .

أما سننه فثمانية أمور : الأول : أن يكون وقوفه فى المكان الذى وقف فيه النبى صلى الله عليه وسلم إن تيسر له ذلك ، فإن لم يتيسر له ذلك

وقف قريباً منه بقدر ما يمكنه ، وهذا خاص بالرجال ، فأما النساء فالسنة فى حقهن أن يقفن فى أخريات الموقف ما لم يكن لهن هودج فالأفضل لهن أن يركبن فيه ، الأمر الثانى : الإكثار من الدعاء والذكر والتهليل ، ومن الأدعية والأذكار أن يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، اللهمَّ اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، اللهم لك الحمْدُ كما نقول وخيراً مما نقول ، والأمر الثالث : أن يحرص على أكل الحلال وخلوص النية والزيادة فى إظهار الخضوع والانكسار ، والرابع : أن يكون متطهراً طاهر الثوب والبدن مستور العورة مستقبل القبلة ، والخامس : أن يكون راكباً إن أمكنه ، والسادس : أن يُحَسِّن خُلُقَه فلا ينهر سائلا ولا يحتقر أحداً من خَلْق الله ولا يخاصم ولا يشاتم ، والسابع : أن يكون بارزاً للشمس إلا أن يكون ثمة عذر يمنعه من ذلك ، والثامن : أن يطيل وقوفه إلى أن تغرب الشمس حتى يجمع بين الليل والنهار .

وقال الحنابلة : للوقوف بعرفة واجب واحد ، ولو شروط ، وله سنن :

أما واجبُه فهو أن يبقى بعرفة إلى أن يدخل الليل إن كان قد حضر نهاراً ، أما إن كان لم يحضر إلا بعد غروب الشمس فإنه يجزئه الوقوف فى هذا الوقت ولا شيء عليه .

وأما شروطه فثلاثة أمور : الأمر الأول : أن يكون قد حضر عرفة

باختياره ، فلوأحضره آخر كَرْهاً عنه لم يجزئه الحضور ، والثانى : أن يكون أهلا للعبادة ، فلا يصح وقوف المجنون ولا المغمى عليه ولا السكران . والثالث : أن يكون حضوره فى وقته المحدد له شرعاً ، ووقته المحدد له شرعاً يبتدىء من فجر يوم التاسع من ذى الحجة إلى طلوع فجر يوم العاشر ، ولا يشترط للوقوف نية ولا علم بأن هذا المكان هو عرفة ولا بأن هذا الزمن هو زمن الوقوف ، بل متى صادف مكان الوقوف وزمانه فقد صح وقوفه .

وأما سننه فخمسة أمور : الأول : أن يكون راكباً على راحلته ، والثانى : أن يكون وقوفه عند الصخرات وجبل الرحمة ، وهو المكان الذى وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثالث : أن يرفع يديه عند الدعاء ، والرابع : أن يكون مستقبل القبلة فى وقوفه ، والخامس : أن يكثر من الدعاء والاستغفار والتضرع و إظهار الضعف والمسكنة والافتقار .

* * *

المسير إلى عرفة وكيفية الوقوف : إذا أنت انتهيت من السعى بين الصفا والمروة على الوجه الذى شرحناه لك فابْقَ مُقِيماً بمكة على صفة الإحرام ، وأَكْثِرْ فى هذا الوقت الذى يلى السعى بين الصفا والمروة من الطواف ببيت الله الحرام ؛ لأن الطواف بالبيت عبادة ، وهو لمن ليس من أهل مكة أفضلُ من صلاة النافلة ، وصَلِّ لكل طوافٍ تَطُوفُه ركعتين ، لكن لا تَسْعَ بين الصفا والمروة غير سعيك الذى سبق .

(١) فإذا جاء يومُ الثامن من ذى الحجة — و يسمى هذا اليومُ «يَوْمَ

« التَّرْوِيَةِ » — فاستعدَّ للذهاب إلى عرفاتٍ ، واعلم أنك ستمر فى طريقك إليها بمنًى ، ولكنك لن تؤدى فى مِنًى حالَ الذهاب عملاً من أعمال الحج .

(٢) فإذا أخذت فى طريقك ذاهباً إلى عرفات فترقَّب أن يكون وصولُكَ إلى منًى فى وقت صلاة الظهر ، فإذا أنت بلغت منى فانزل بها ، وليكن نزولُكَ بمنى قريبا من مسجد الْخَيْفِ ، وقُلْ عند نزولك مِنًى : اللَّهُمَّ هٰذِهِ مِنًى، وَهِىَ مِمَّا مَنَنْتَ بِهَا عَلَيْنَا مِنَ الْمَنَاسِكِ ، فَامْنُنْ عَلَىَّ بِمَا مَنَنْتَ بِهِ عَلَى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ؛ وصل بمنًى ظهرَ يوم الثامن من ذى الحجة ، وَابْقَ بِهَا حتى تصلى العصر والمغرب والعشاء ، ونَمْ فيها ، ثم استيقظ فَصَلِّ فجر يوم التاسع من ذى الحجة ، ثم خذ فى الاستعداد لمواصلة السير إلى عرفات ، وَلْيَكُنْ بَدْءُ سيرك من منًى إلى عرفات بعد طُلُوع نهار يوم التاسع .

واعلم أن هذا الذى وصفناه لك من الذهاب إلى منى والبيات بها وصَلاة خمسة الأوقات فيها هو المنقول من فعل النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو المروى أن إبراهيم خليل الله فعلَهُ ، وهو سنة ، على معنى أنك لو بت ليلة التاسع بمكة وصليت فيها الصلوات الخمس جاز غير أنك تكون مسيئاً لأنك خالفت سنة سيد الأولين والآخرين محمدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) فإذا أنت وصلت إلى عرفات فانزل بها ، ثم إن قدرت على أن يكون نزولُك عند جَبَل الرحمة فافعَلْ ، وإن لم تقدر على ذلك فانزل حيث تيسر لك ، وتذكر أن إيذاء إخوانك بالمزاحمة والسِّباب حرامٌ ، وأن ترك ذلك واجبٌ عليك .

(٤) فإذا جاء وقت زوال الشمس فتوضأ واغتسل ثم صل مع الإمام صلاة الظهر وصلاة العصر فى وقت صلاة الظهر ، نعنى أنك تجمع الصلاتين جمع تقديم فى وقت الأولى منهما وهى الظهر .

واعلم أن النقل عن النبى صلى الله عليه وسلم قد تواتر بأنه فَعَلَ ذلك ، ثم اعلم أن الحكمة فى الجمع بين الصلاتين هى أن تتفرغ للوقوف بعرفة والدعاء والابتهال إلى الله تعالى ، ولهذا لا يُسَن أن تصلى بين صلاة الظهر وصلاة العَصْر نافلةً لامن الرواتب التى تصليها عادةً بعد صلاة الظهر ولامن غيرها ، ثم اعلم أنه ليس بحتم عليك أن تصلى هاتين الصلاتين خلف الإمام، بل يجوز لك أن تصليهما منفرداً .

(٥) فإذا أنت أتممت صلاة الظهر وصلاة العصر فخذ فى الوقوف بعرفة ؛ والأفضل لك أن تكون راكباً حينئذ إن كنت قادراً على الركوب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم « راح عقيب صلاة العصر إلى الموقف ، ووقف على راحلته مستقبلَ القبلة باسطاً يديه كالمُسْتَطْعِمِ المسكين » وحينئذ ينبغى لك أن تحمد الله تعالى ، وتثنى عليه بما هو أهله ، وتصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وتسأل الله تعالى حاجَتَكَ ، وتُلَبِّى التَّلْبية التى ذكرناها لك ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَازَالَ يُلَبِّى حَتَّى أَتَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ » .

واعلم أن القيام والركوب ليسا بحَتْمٍ عليك ، بل يجوز أن تكون قاعدا

أو مضطجعا أو على أى حالٍ ، لـكن الأفضل هو ما ذكرنا أولا .

ثم اعلم أن عرفات كلها موقف ، يعنى أنه يتم فرضُ الوقوف بعرفة إذا كنت فى أى مكان منها ، إلا مكاناً يسمى « بطن عُرَنة » فإنه يجب عليك أن تتحاشى الوقوف فيه ، وقد بيناه لك فى الكلام على عرفات (ص ٨٧) .

(٦) والمستحبُّ أن تقرأ فاتحة الـكتاب ، ثم تقرأ سورة الإخلاص عشر مرات ، ثم تقول : لا إلٰهَ إلا الله وَحْدَه ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يُحْيِي وَيُمِيت وهو حَىٌّ لا يَمُوت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، سبحان الله ، والحمدُ لله ، ولا إلٰه إلا الله ، والله أكبر ، ولا حَوْل ولا قوةَ إلا بالله العلىِّ العظيم ، يارفيعَ الدرَجات ، يامُنْزِلَ البركات ، يافاطِرَ الأرَضِينَ والسمٰوات ، ضجَّت لك الأصواتُ بصُنُوف اللغات ، تسألك الحاجات ، وحاجَتِي أنْ تَرْحَمَنِي فى دار البلاء إذا نَسِيَنِي أهلُ الدنيا ، أسألك أن توفِّقَنى لما افترضْتَ على ، وتعينني على طاعتك وأداء حقك وقضاء المناسك التى أرَيْتهَا خليلَكَ إبراهيم ودَلَلْتَ عليها محمداً حبيبك ، اللهمَّ إن لـكل متضرع إليك إجَابَةً ، ولـكل مسكين لديك رأفة ، وقد جئتك متضرعاً إليك مسكيناً لديك ، فاقضِ حاجتى ، واغفر ذنوبى ، ولا تجعلنى من أخْيَبِ وَفْدِكَ ، اللهم إنك قلت وأنت لا تخلف الميعاد (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَـكُمْ) وقد دَعَوْتُكَ متضرعاً سائلا ، فأجِبْ دعائِي ، وأغِثْنِي من النار ، واغفر لى

ولوالدىَّ ولجميع المسلمين والمسلمات برحمتك يا أرحم الراحمين .

(٧) فإذا غربت الشمس فقُلْ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْهُ آخِرَ الْعَهْدِ بِهٰذَا الْمَوْقِفِ، وَارْزُقْنِيهِ مَا أَبْقَيْتَنِي وَاجْعَلْنِي الْيَوْمَ مُفْلِحاً مَرْحُوماً مُسْتَجَاباً دُعَائِي ، مَغْفُوراً ذَنْبِي ، وأكثر من الاستغفار

(٨) ثم خُذْ فى التأهب للنزول إلى المزدلفة ؛ هكذا فعل النبى صلى الله عليه وسلم ، ورُوى عنه أنه قال : « إن أَهْلَ الشركِ كَانُوا يَدْفَعُونَ مِنْ عَرَفَةَ إِذَا صَارَتِ الشَّمْسُ عَلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ مِثْلَ عَمَائِمِ الرِّجَالِ ، وأنا أَدْفَعُ بعد غروب الشَّمْسِ مُخَالَفَةً لَهُمْ »

وينبغى لك ألا تنزل من عرفة قبل أن ينزلَ الإمامُ ، إلا إذا تأخر الإمامُ بعد الغروب ، فإن تأخر فأنت وما ترى من مصلحة نفسك : إن شئت أن تتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تتريث حتى يهدأ الزحامُ فافعل .

* * *

الوقوف بالمزدلفة : ومن أعمال الحج الوقوف بالمزدلفة ، وليس الوقوف بالمزدلفة ركنا من أركان الحج كالطواف وكالوقوف بعرفة ، ولكنه واجب لا يفوت الحجُّ بفواته . والمراد من الوقوف بالمزدلفة الحضورُ بها على أى حالة ، نعنى سواء أكنت واقفا أم قاعدا أم سائرا ، وقد اختلف علماء المذاهب الأربعة فى بيان ما يجب فيه .

فقال الحنفية : الواجبُ هو الحضور بالمزدلفة قبل فجر اليوم العاشر

الذى هو يومُ النحر ، فلو ترك الحضور قبل الفجر لزمه دمٌ ، إلا إذا كانت به علة أو كان مريضا فإنه لا يلزمه الحضور ولا شيء عليه فى تركه حينئذ .

وقال المالكية : الواجبُ هو النزول بالمزدلفة ليلاً قبلَ الفجر بمقدار ما يحط رحله وهو سائر من عرفة إلى منى ، ما لم يكن معذورا ، فإن كان معذوراً فلا يجب عليه النزول بها .

وقال الشافعية : الواجبُ هو الوجودُ بالمزدلفة فى النصف الثانى من ليل اليوم العاشر من ذى الحجة بعد الوقوف بعرفة ، ولا يشترط المكث بها ولا العلم بأنها المزدلفة ، بل يكفى المرورُ بها سواء أعلم أن هذا المكان هو المزدلفة أم لم يعلم .

وقال الحنابلة : الواجبُ هو المبيتُ بالمزدلفة ليلة النحر ، وهذا واجب على غير السُّقاةِ والرعاة ، أما هم فلا يجب عليهم المبيت بها ، لكن لمن نزل بها أن يرتحل عنها بشرط أن يكون ارتحاله بعد انتصاف الليل لما روى عن ابن عباس قال : كنتُ فيمَنْ قَدَّمَ النَّبىُّ صلى الله عليه وسلم فى ضَعَفَة أهلِهِ من مزدلفة إلى منى . ومن وَصَل إلى المزدلفة بعد الفجر أو دفع منها قبل انتصاف الليل ممن وجب عليه الوجودُ بها فعليه دمٌ .

***

رمى الجمار : ومن أعمال الحج رَمْيُ الجمار ، والجمارُ : جمع جمرة ، وهى الحصَاة الصغيرة ، ورمى الجمار واجبٌ من واجبات الحج مثل المبيت بالمزدلفة ،

وليس ركنا يفوت الحج بفواته كالوقوف بعرفة ، ورَمْىُ الجمار يقع فى أربعة أيام ـ وهى : يوم النحر ، والأيامُ الثلاثة التى بعده وتسمى أيام التشريق ـ غير أن رَمى يوم النحر يكون عند جمرة العقبة فقط ، ورمى الأيام الثلاثة التى تلى يوم النحر يكون عند ثلاث جمرات ، وكل مرة يكون الرمى بسبع حَصَيَاتٍ ؛ فمجموع مايَرْميه الحاجُّ من الحصى هو سبعون حصاة : يرمى يوم النحر سبعاً ، ويرمى فى كل يوم من الأيام الثلاثة بعده إحدى وعشرين حصاة

ولرمى الجمار شروط وسنن ومكروهات ، وعلماء المذاهب الأربعة يختلفون فى عَدِّ هذه الأشياء فلنذكر لك كل مذهب على حِدَة كما صنعنا فى أعمال الحج التى ذكرناها فيما مضى :

قال الحنفية : لرمى الجمار شروط ، وسنن ، ومكروهات :

أما شروطه : فأمران : الأول : أن يكون مايرمى به من جنس الأرض ، ولو كان حَفْنَةً من تُرَاب ، وتقومُ الحفنة من التراب مقامَ حَصَاة واحدة ، والمراد أنه لا يجوز الرمى بخشب ولا بعنبر ولا بلؤلؤ ولا بذهب ولا بفضة ولا بجوهر ولا ببَعَر وما أشبه ذلك مما لا يكون من جنس الأرض . والثانى : أن تقع الحصاةُ عند الجمرة أو قريباً منها : فإن رمى الحصاة فنزلت على رجل أوجمل فإنه ينظر : فإن وقعت بعد ذلك بنفسها عند الجمرة أوقريبةً منها جاز ، وإن وقعت بعيداً عن الجمرة لم تجزئه ووجب عليه أن يرمى غيرها وحَدُّ البعد عن الجمرة أن يكون بين الحصاة والجمرة ثلاثة أذرع .

وأما سنن الرمى فخمسةُ أمور : الأول : أن يكون بين الرامى و بين الجمرة خمسة أذرع ، والثانى : أن يمسكها برءوس أصابعه ، والثالث : أن يكبر مع كل حصاة بأن يقول : بسم الله ، الله أكبر ، والرابع : الترتيب فى رمى أيام التشريق بأن يبدأ برمى الجمرة الأولى وهى التى تلى مسجد الخيف ثم بالجمرة الوسطى ثم بجمرة العقبة ، فإن عكس صح لكن يُسَن له أن يعيد على هذا الترتيب ، والخامس : أن يقف قليلا بعد أن يتم الرمى الذى يليه رَمْىٌ بمقدار قراءة ستة أرباع من القرآن (أى ثلاثة أرباع جزء من أجزائه الثلاثين ، و يقدر ذلك بثلث ساعة تقريباً) .

وأما مكروهات الرمى فأربعة أمور : الأول : أن يأخذ الحصى من عند الجمرة ، والثانى : أن ينترها نَتْرًا ، بل يرفع يده بها ثم يحذفها حذفا ، والثالث : أن يرمى بأكثر من سبع حَصَيَات ، والرابع : أن يتخذ حجرا واحدا ثم يكسره حَصًى صغارا يرمى بها ، بل يجمع الحصى من مكان بعيدٍ ثم يرمى به .

وقال المالكية : لرمى الجمار شروط صحة ، ومندوبات :

أما شروط صحته فأربعة أمور : الأول : أن يبدأ فى كل يوم من أيام التشريق برمى الجمرة الكبرى وهى التى تلى مسجد منى ، ثم يرمى الجمرة الوسطى وهى التى فى السوق ، ثم يختم بجمرة العقبة ، أما فى يوم النحر فإنه لا يرمى إلا جمرة العقبة ، والثانى : أن يكون ما يرمى به من جنس الحجَرِ ، فلو رمى بطين لا يكفيه وعليه الإعادة ، والثالث : ألا تكون الحصاة صغيرة كالقمحة ، فلو رمى بحصًى صغير جداً لم يكفِه ، والرابع : أن يرميه بيده

فلو رمى برجله لم يصح .

وأما مندوباته فثلاثة أمور : الأول : أن يكون الرمى فى كل يوم من أيام التشريق قبل أن يصلى الظهر ، والثانى : أن يكون الحصى طاهراً ، فلو رمى بحصًى متنجس أجزأه لـكن يندب له أن يُعيد الرمى بحصًى طاهر ، والثالث : أن يكون الرمى بيده اليمنى إن كان يحسن الرمى بها .

وأما ما يكره فى الرمى فأن يكون الحصى كبيراً .

وقال الشافعية : للرمى شروط صحة ، وسنن ، ومكروهات :

فأما شروط صحته فتسعة أمور : الأول : أن يكون الرمى بعـد الوقوف بعرفة ، والثانى : أن يتحقق معنى الرمى بأن يأخذ الحصاة بيده ثم يرفع يده بها و يحذفها ، فلو وضع الحصى بيده فى موضع الرمى لم يكفه ذلك ، والثالث : أن يقصد المـكانَ الذى ترمى فيه الجمار ، فلو حذفها فى الهواء غير قاصدٍ إياه لم يكفه حتى ولو وقع فى مكان الرمى ، والرابع : أن يتحقق أن كل حصاة وقعت فى مكان الرمى ، والخامس : أن يكون الرمى بيده لا بنبل وقَوْسٍ ونحوهما ، والسادس : أن يكون المرميُّ به من جنس الحجارة ، فلا يجوز الرمى باللؤلؤ ولا بالملح ولا بالفول ونحو ذلك ، والسابع : أن يتأكد الرامى فى كل جمرة يرميها بأنه رمى سَبْعَ حَصَيَاتٍ ، فإن شك فى عَدَد ما رماه من الحصى اعتبر الأقلَّ وكمل السبع ، والثامن : أن يرمى كل جمرة سبع مرات ، فلو أخـذ سبع حصيات ورمى بهنَّ مرة واحدة حُسِبت حصاة

واحدة ، والتاسع : الترتيب فى رَمْيِ أيام التشريق بأن يبدأ برمى الجمرة التى تلى مسجد الخيف ، ثم بالجمرة الوسطى ، ثم بجمرة العقبة .

وأما سنن الرمى فتسعة أمور : الأول : أن يغتسل له فى كل يوم ، والثانى: أن يقدِّم رَمْى كل يوم من أيام التشريق على صلاة الظهر ، والثالث: الموَالاة بين الجمرات الثلاث و بين كل حصاتين ، والرابع : أن يكون الرمى باليد اليمنى إن سهل عليه ذلك ، والخامس : أن يغسل الحصى إن احتمل نجاسته ، والسادس : أن يكون الجمر صغيراً أقل من الأنملة ، والسابع : أن يكبر عند أول حصاة يرميها ، والثامن : أن يرمى راكباً إذا أتى راكباً ، والتاسع : أن يكون الحصى جديداً لم يَرْمِ به لا هو ولا غيره من قبلُ .

وأما ما يكره فى الرمى فهو أن يترك شيئاً من سننه .

وقال الحنابلة : يشترط فى صحة الرمى سبعة أمور : الأول الترتيب بأن يبدأ بالتى تلى المسجد ثم بالوسطى ثم بجمرة العقبة ، والثانى : ألا تكون الحصاة صغيرة جداً ولا كبيرة ، والثالث : ألا تكون مما رمى به غيره ، والرابع : أن تكون من جنس الحصى فلايصح الرمى بالجوهر ولا بحبات الذهب أو الفضة ولا بالفول ونحوه ، والخامس : أن يَصْدق اسمُ الرمى على فعله ، فلا يكفى أن يضع الحصى فى مكان الرمى ، والسادس : أن يرمى واحدة بعد واحدة حتى يتم سبعا ، فإن رمى اثنتين معاً حسبتا واحدة ، والسابع : أن يعلم يقيناً بوصُول الحصى إلى المرمى ، فلا يكفى ظن الوصول إليه ، ولو رمى حصاة

فوقعت خارج المرمى ثم تدحرجت حتى وقعت فى المرمى أجزأته .

وقت الرمى : وللرمى وقت ينبغى أن يقع فيه ، وهـذا الوقت مختلف بالنسبة للرمى الذى يكون فى يوم النحر — وهو رمى جمرة العقبة وحدها — وبالنسبة للرمى الذى يكون فى أيام التشريق .

فأما رمى يوم النحر فقال الحنفية : وقته يبتدىء من فجر يوم النحر وينتهى بطلوع الفجر من اليوم التالى ، فإن قَدَّمه على فجر يوم النحر لم يجزئه وإن أخره عن فجر اليوم التالى لزمه دم ، لـكن المستحب أن يرميه فيما بين شروق شمس يوم النحر وزوالها ، ويباح فعله بعد الزوال إلى غروب الشمس بغير كراهة ، ويكره فعله فيما بين طلوع فجر يوم النحر إلى شروق شمسه كما يكره فعلُه بعد غروب شمس ذلك اليوم . وقال المالـكية : يبدأ وقتـه بطلوع فجر يوم النحر ، ويندب فعله فيما بين طلوع الشمس إلى الزوال ولو قبـل الغروب ، وقال الشافعية : يبتدىء وقت الرمى من منتصف ليلة النحر ، بشرط أن يكون قد وقف قبله بعرفة ، لـكن يندب أن يفعله بعد طلوع شمس يوم النحر؛ لما رواه جابر رضى الله تعالى عنه ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يَرْمِي الجمرةَ ضُحى يوم النَّحْرِ . ومذهب الحنابلة فى هذه المسألة كمذهب الشافعية .

وأما الرمى فى كل يوم من أيام التشريق فقال الحنفية : يبتدىء بعد زوال الشمس كل يوم وينتهى بطلوع فجر اليوم التالى ، لـكن يستحب

أن يفعله فيما بين زوال الشمس كل يوم وغروبها ، ويكره فعله فيما بين غروب الشمس وطلوع الفجر ، ولو قَدَّمه قبل الزوال لم يجزئه ولوأخره حتى طلع فجر اليوم التالى لزمه دم . وقال المالكية : يدخل وقت الرمى فى كل يوم بزوال الشمس وينتهى بغروبها ، فلو قدم الرمى على الزوال لم يكفه وعليه أن يعيده بعد الزوال ، فإن لم يعده بعد الزوال فعليه دم ، وإن أخره حتى غربت الشمس فعليه دم أيضاً . وقال الشافعية : يبتدئ وقته بزوال الشمس من أول أيام التشريق ولا ينتهى إلا بانتهاء أيام التشريق كلها ، ومعنى هذا أن تقديم هـذا الرمى على زوال الشمس من أول أيام التشريق لا يصح ، وتجب إعادته بعد زوال الشمس ، لكن لو أخره إلى ثانى يوم أو ثالث يوم صح ، فإن أخره حتى مضى اليوم الثالث من أيام التشريق لم يَعُدْ ينفعه أن يأتى به ، وعليه دم ، وعندهم أن أيام التشريق الثلاثة بالنسبة لرمى الجمار كاليوم الواحد ، حتى إنه لو رمى الجمار كلها فى اليوم الثالث من أيام التشريق صح ووقع أداءً ، وعليه أن يرتبه بالنية ، وذلك بأن ينوى أن هذا الرمى عن اليوم الأول ، ثم ينوى أن الرمى عن اليوم الثانى ، وهكذا ، ومذهَبُ الحنابلة كمذهب الشافعية فى هذه المسألة على هذا التفصيل .

***

المبيت بمنًى : ومن أعمال الحج المَبيتُ بمنى ليالىَ أيامِ التشريقِ ، وهو من واجبات الحج ، والمراد من المبيت بمنى قضاء معظم الليل فى كل ليلة

من ليالى أيام التشريق الثلاثة بمنًى ، هذا لمن لم يتعجل ، أما من يتعجَّلُ فله أن يخرج من منى إلى مكة فى اليوم الثانى من أيام التشريق — وهو ثالث أيام العيد — بشرط أن يكون خروجه من منًى قبل غروب شمس اليوم الثانى من أيام التشريق ، فلو أنه أخَّرَ الخروج حتى غربت شمسُه وجب عليه المبيت بمنًى ووجب عليه رمْىُ جمار اليوم الثالث ، ولو خرج من منى إلى مكة قبل غروب شمس اليوم الثانى — و بعد أن رَمَى جمار ذلك اليوم — سقط عنه المبيت بمنًى ليلة الثالث ، وسقط عنه رمى جمار اليوم الثالث

و إنما يجب المبيت بمنى على التفصيل المذكور على غير ذوى العذر ، أما المعذورون — ومنهم رعاة الإبل ، وسُقَاة الحجيج ، ومَنْ خاف على نفسه أو ماله — فهؤلاء وأمثالهم لا يلزمهم المبيت بمنًى ، و يجوز لهم أن يبيتوا بمكة ثم يأتوا منًى فى كل يوم لرمى الجمار

وقد ذكرنا لك فيما شرحناه من حفر بئر زمزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعمه العباس أن يذهب كل ليلة للمبيت بمكة و يعود نهارا لِرَمى الجمار .

وهذا المقدار متفق عليه فى المذاهب الأربعة ، كلهم يوجبون على غير ذوى الأعذار المبيتَ بمنًى ثلاث ليالٍ إذا لم يتعجل الحاج ، وليلتين إذا تعجل ، والأصلُ فى هذا كله قولُ الله تبارك وتعالى : (واذكروا الله فِى أيامٍ معدوداتٍ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، لِمَنِ اتَّقَى ، وَاتَّقُوا اللّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

الحلق أو التقصير : ومن واجبات الحج الحَلْقُ أو التقصيرُ ، والمرادُ بالحلق أخْذُ شعر الرأس بالموسٰى ، والمراد بالتقصير أن يأخذ من أطراف شعره جزءا ، وأقله مقدار قدر الأنملة ، ولاخلاف بين أحد من العلماء فى أنه يجوز له أن يفعل أيهما شاء ، ولا فى أن الأفضل فى حق الرجال الحلق ، وأن الواجب على النساء هو التقصير ، و إذا لم يكن على رأسه شعر أجرى الموسٰى على رأسه تشبيها (١) بالحلق ، والسنة أن يحلق الجميع ، فإن نقص من ذلك شيئاً فقد أساء لمخالفة السنة ، و يستحب أن يقول عند الحلق : اللَّهُمَّ هٰذِهِ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، فَاجْعَلْ لِي بِكُلِّ شَعْرَةٍ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَاأَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

الذبح : ومن أعمال الحج ذبح الهَدْى ، والهَدْىُ على ثلاثة أنواع : الأول هَدْى واجب على الإنسان بسبب عَمَلٍ فَعله فى الحج ، ومن هذه الأسباب أن يكون مُتَمَتِّعاً : أى قد أحرم بالعمرة فى زمان الحج و بعد أن أدى عملها أحرم وهو فى الحرم بالحج ، ومن الأسباب أن يكون قد جمع بين الحج والعمرة فى إحرام واحد ، ومن الأسباب أن يكون قد ترك واجباً من واجباب الحج . والنوع الثانى : هَدْىٌ أَوْجَبَه الإنسانُ على نفسه بالنَّذْرِ . والنوع الثالث : هَدْىٌ يتطوع الإنسانُ به لله تعالى من غير نذرٍ . و يشترط فى كل هدى يُهْدِيه المحرِمُ أن يكون سليما من العيوب بحيث لا تكون الشاة عوراء ولا عمياء ولا هزيلة ولا عَرْجَاء ولا مريضة مرضاً ظاهراً ، وعلماء المذاهب الأربعة متفقون على أن ذبح الهَدْى بجميع أنواعه يُسَنُّ أن

(١) وفى مذهب الحنابلة قول أنه إذا لم يكن برأسه شعر أصلا سقط عنه الحلق

يكون فى يوم النحر بعـد صلاة العيد ، بمنًى إن كان حاجًّا ، و بمكة إن كان مُعْتَمِراً .

* * *

كيفية أداء هذه النسك : إذا غربت الشمس وأنت واقف بعرفات يوم تاسع ذى الحجة فتهيأ للنزول مع الإمام أو مَنْ يُنِيبُه الإمام عنه ، ما لم تخف على نفسك من الزِّحام ، فإن خفت على نفسك من الزحام فتمهَّل وانتظر قليلا حتى يخف الزحام ، ثم سِرْ فى طريقك إلى المزدلفة ، وليكن سَيْرُك بسكينة فإن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول لأصحابه فى مثل هذا الوقت «أيهَا النَّاسُ، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ» يريد التزموا السكينة ، وليكن سيرُك فى طريق المأزِمَيْن ووادى مُحَسِّر ، أما المأزمان فهما واقعان بين عرفة والمزدلفة وأما وادى مُحَسر فهو واقع بين المزدلفة و مِنًى .

(١) ولا تُصَلِّ المغرب فى عرفة ولا فى الطريق ، ولكن انتظر حتى تصل إلى المزدلفة ، فإذا وصلت إلى المزدلفة فاجمع بين المغرب والعشاء جمع تأخير فى وقت العشاء ، هذه هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أنت صليت المغرب فى الطريق أجزأتك صلاتك لكنك تكون مسيئاً لأنك خالفت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) فإذا صرت فى المزدلفة وصليت بها الصلاتين فَبِتْ بها حتى تصلى الصبح بغلس ، فإذا صليت الصبح فاذْهَبْ إلى المشعر الحرام — وهو جبل صغير بالمزدلفة — فإذا أتيته فاصْعَدْ عليه ، وقف فوقه ، واحمد الله تعالى وكَبِّرْهُ

وهلِّلْه ، ثم اقرأ قول الله تعالى : (فإذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فاذْكروا اللهَ عِنْدَ المشْعَرِ الحْرَامِ ، واذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ، ثمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ ؛ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

واسْتَمِرَّ على الدعاء والاستغفار إلى أن يظهر ضوء النهار ظهوراً شديداً ، فإنه قد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يَزَلْ واقفا عند المشعر الحرام حتى أسْفَرَ جدا »

(٣) فإذا ظهر ضوء النهار ظهوراً شديداً فسِرْ قبل طلوع الشمس نحو مِنًى ، فإذا بلغت وادى مُحسر فأسرع السير إن كنت ماشياً ، وإن كنت راكباً فحرك دابتك لتشتد فى سَيْرها ، وذلك لأنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أتى بَطْنَ مُحَسر حرَّكَ دابته قليلا »

ويروى أن ابن عمر — رضى الله تعالى عنهما ! — لما أتى محسرا أسرع ثم قال :

إِلَيْكَ تَغْدُو قَلِقاً وَضِينُهَا ... مُخَالِفاً دِينَ النَّصَارَى دِينُهَا

* مُعْتَرِضاً فِي بَطْنِهَا جَنِينُهَا *

(٤) فإذا جاوزت وادى محسر فاجمع سبعين حصاةً ، كُلُّ حصاة منها بين الحمصة والبندقة ، ويُسَن لك أن تغسل هذا الحصى حتى تطمئن إلى طهارته واجْعَلْه معك ، حتى إذا وصلت مِنًى فاذهب إلى جمرة العقبة فارْمِهَا بسبع حصياتٍ متعاقباتٍ واحدةً بعد واحدة ، وارفع يدك اليمنى بكل حصاة حتى يظهر إبطك ، وارمها ، وكبر الله تعالى عند الرمى ، قل : اللهُ أكبر ، اللهُ أكبر ،

اللهمَّ اجعله حجاً مبروراً ، وسعياً مشكوراً ، وذنباً مغفوراً . واجتهد أن تقع كل حصاة فى المَرْمى ، وليكن وقوفك حين الرمى فى بطن الوادى .

(٥) فإذا انتهيت من رمى جمرة العقبة فانحر مامعك من الهدى إن كان معك هَدْى ، و إن لم يكن معك هدى وكان عليك أن تذبح شاة بسبب من الأسباب التى توجب ذلك فانحرها ، ومن الأسباب التى توجب الشاة أن تكون متمتعاً : أى نويت العمرة وحدها عند الميقات ، وأدَّيْتَ أعمالها ، ثم أحرمت بالحج يومَ التروية ، فإن لم يكن معك هَدْى ، ولم يكن عليك دمٌ فإنه يُسَنُّ لك أن تذبح شاة وتفرق لحمها على مساكين الحرم .

(٦) فإذا انتهيت من ذلك فاحلق شعرك كله بالموسى ، أو قصِّرْ شعرك كله بمقص ، و يسن لك أن تستقبل القبلة حين الحلق أو التقصير ، وأن تبدأ بالجهة اليمنى من رأسك .

(٧) فإذا أنت رمَيْتَ جمرة العقبة وحلقت شعرك أو قصرته فقد حل لك كل شىء كان محظورا عليك بسبب الإحرام ، إلا النساء فإنه لا يزال محرما عليك مباشرتهن وتقبيلهن ولمسُهُنَّ وعَقْد الزواج عليهن ، وقد روى من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذ رميتم وحَلَقْتُمْ فقد حلَّ لكم الطيب والثيابُ ، وكل شىء إلاَّ النساء » .

(٨) فإذا أنت فعلت ذلك فاذهب إلى مكة المكرمة لتطوف طواف الزيارة ، وهو المسمَّى طواف الإفاضة ، وقد بينا لك حكمه ومايتعلق به فيما مضى (ص ١٣٨ ومابعدها) . فإذا فعلت ذلك فقد حل لك كل شىء حتى النساء .

ومن هنا تعلم أنك ستؤدى فى يوم النحر أربعة أشياء كلها من أعمال الحج : الأول رمى جمرة العقبة ، والثانى : النحر ، والثالث : الحلق أو التقصير ، والرابع : طواف الإفاضة .

(٩) فإذا طفت طواف الإفاضة فارجع من مكة إلى منًى لتبيت بها ثلاث ليالٍ إن كنت غير متعجل ، وليلتين إن كنت متعجلا ، ولترمى الجمرات الثلاث فى كل يوم من أيام التشريق .

(١٠) فإذا كان أول أيام التشريق فاذهب إلى الجمرة الأولى التى تجاور مسجد الخيف ، وليكن ذهابك إليها بعد زوال الشمس وقبل أن تصلى ظهر هذا اليوم ، فإذا بلغت الجمرة فاجعلها إلى يسارك قليلا وتأخر عنها ثم اُرمها بسبع حَصَيَاتٍ متعاقبات .

(١١) فإذا انتهيت من رَمى الجمرة الأولى فقف وادعُ الله تعالى وأنت رافع يديك ، ثم اذهب إلى الجمرة الوسطى فارمها بسبع حصيات متعاقبات ، فإذا انتهيت منها فقف وادعُ الله تعالى رافعا يديك ، ثم اذهب إلى جمرة العقبة فارمها بسبع حصيات متعاقبات ، ولا تقف بعد ذلك كما كنت تقف بعد رمى الجمرة الأولى والثانية .

(١٢) وافعل مثل ذلك فى اليوم الثانى من أيام التشريق .

(١٣) ثم إذا كنت تريد أن تتعجل فسِرْ إلى مكة ، بشرط أن تخرج من مِنًى قبل غروب الشمس ، وحينئذ يسقط عنك رمى الجمار فى اليوم الثالث من أيام التشريق ، فإذا لم تخرج من منى قبل أن تغرب الشمس من اليوم الثانى من أيام التشريق وجب عليك أن تبيت بها ليلة الثالث ، ثم تفعل

فى اليوم الثالث كما فعلت فى اليومين السابقين .

(١٤) فإذا ذهبت إلى مكة وفَرَغْتَ من جميع مشاغلك فطُفْ بالبيت طوافَ الوَدَاع ، وليكن هو آخر عهدك ببيت الله الحرام ، ومعنى هذا أنك إذا بِعْتَ أو اشتريت بعد الطواف كان عليك أن تعيده متى فرغت من جميع أمورك وعزمت على الخروج ؛ لأن المراد من طواف الوداع أن يكون هو آخر شىء يفعله الحاج إذا أراد الرجوع إلى أهله .

(١٥) فإذا أنت انتهيت من طواف الوَداع فقِفْ فى المُلْتَزَمِ — وهو المكان الواقع بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، وألصق به وجهك وصدرك وذراعيك وكفيك مبسوطتين ثم ادعُ الله تعالى قائلا : اللهم هذا بيتُك ، وأنا عَبْدُك وَابْنُ عبدِك وابنُ أَمتِك ، حَمَلْتَنِى على ما سَخَّرْتَ لِى من خلقك ، وسَيَّرْتنى فى بلادك حتى بلغتنى بنعمتك إلى بيتك ، وأعنتنى على أداء نُسُكِى ، فإن كنت رضيت عنى فازْدَدْ عنى رِضاً ، وَ إلا فمن الآن قبل أن تَنْأَى عن بيتك دارى ، وهذا أوانُ انصرافى إن أذِنْتَ لِى ، غَيْرَ مستبدلٍ بك ولا ببيتك ، ولا راغب عنك ولا عن بيتك ، اللهم فأصحبنى العافية فى بَدَنى ، والصحَّةَ فى جسمى ، والعصمة فى دينى ، وأَحْسِنْ مُنْقَلَبِى ، وارزقْنِى طاعَتَكَ ما أَبْقَيْتَنِى ، واجْمَعْ لى بَيْنَ خَيْرَىِ الدنيا والآخرة ؛ إنك على كل شىء قدير .

(١٦) ثم اذهب إلى الحَطِيم فادعُ الله تعالى بما أحببت ، ثم اذهب إلى زمزم

فاشرب من مائها ، ثم ارجع إلى الحَجَرِ الأسود فاسْتَلِمْهُ وقَبِّلْه ، ثم اخرج واذهب عائدا إلى أهلك .

وإذا كانت المرأة حائضا أو نُفَسَاء فإنها تقف عند باب المسجد ، وتدعُو الله تعالى بالدعاء الذى ذكرناه ثم تنصرف .

* * *

أعمال العمرة : للعمرة أعمال بعضها ركن ، وبعضها واجب ، وبعضها سنة ، وعلماء المذاهب الأربعة يختلفون فى عدِّ هذه الأشياء ، فلنذكرها لك مفصلة على نحو ماصنعنا فى أعمال الحج

واعلم قبل كل شىء أن العمرة ليس لها ميقات زمانى ، ومعنى هذا أنها تصح فى كل وقت من أوقات السنة كلها ، ولها ميقات مكانى هو نفس ميقات الحج المكانى .

العمل الأول من أعمال العمرة : الإحرام ، ويجب كونُه من الميقات المكانى لها ، وقد بيناه فيما سبق (ص ١٢٠) وهذا العمل شرط من شروط صحة العمرة عند الحنفية ، وهو عند علماء المذاهب الثلاثة ركن من أركان العمرة ، والنتيجة العمليَّة للمذاهب الأربعة واحدة ، والمراد أنه لابد لمن يريد العمرة من الإحرام لها من ميقاتها ، وأنه إذا لم يحرم لها أصلا لم تقع له عمرة ، وإذا أحرم بعد ما جاوز الميقات لزِمَهُ الرجوعُ إن أمكنه ، فإن لم يمكنه أحرم من حيث قدر وعليه دم .

العمل الثانى : الطواف بالبيت ، سبع مرات ، كما تقدم فى الحج ، وهو ركن عند المالكية والحنابلة والشافعية ، وقال الحنفية : الركن هو معظم

الطواف وهو أربعة أشواط ، والثلاثة الأخرى واجب ، ومعنى هـذا أنه لوطاف أقل من أربعة لم تقع له عمرة ، ولوطاف أربعة وترك ماعداها لزمه دم .

العمل الثالث : السعي بين الصفا والمروة ، وهو ركن عند المالـكية والشافعية والحنابلة ، وقال الحنفية : هو واجب لاتفوت العمرة بفواته ، ولـكن يلزمه بتركه دم .

العمل الرابع : الحلق أو التقصير ، وهو ركن من أركان العمرة عند الشافعية وحدهم ، وقال الحنفية والحنابلة : هو واجب ، وليس بركن .

قال الشافعية وحدهم : وللعمرة ركن خامس ، وهو الترتيب بين الأعمال السابقة : بأن يطوف أولا ، ثم يسعى ، ثم يحلق أو يقصر .

وكل شيء ذكرنا فيما مضى أنه يجب على من أحرم بالحج أن يأتي به : من التجرد عن لبس المَخيطِ والمُحِيط ومن التلبية ومن اجتناب النساء والصَّيْد البريِّ ونحو ذلك ؛ فإنه واجب على المحرم بالعمرة ما دام محرماً بها .

وكل شيء ذكرنا أنه سنة للحج فهو سنة للعمرة ، وبالجملة فهي كالحج في الإحرام والفرائض والسنن والمحرمات والمـكروهات والمفسدات ، ولـكنها تخالف الحج في أمور : أولها أنه ليس لها وقت معين ، وثانيها أنها لا تفوت أصلاً كما يفوت الحج إذافات وقت الوقوف بعرفة ، وثالثها أنه ليس فيها وقوف بعرفة ولا نزول بمزدلفة ولا رَمْيُ جمارٍ ولا طوافُ قدومٍ ولا خطبة ، ورابعها أن ميقاتها المـكاني لمن كان بمكة هو الحِلُّ فأما الحج فميقاته المـكاني لمن كان بمكة الحَرَمُ كما قدمنا .

سنن الحج : قد ذكرنا لك أعمال الحج تفصيلا فيما سبق ، وذكرنا لك ما هو ركن منها ، وما هو شرط صحة ، وما هو واجب ، وما هو سنة ، على اختلاف المذاهب فى ذلك ، وذكرنا لك ما يسن فى الطواف ، وما يسن فى السعى بين الصفا والمروة ، وما يسن فى رمى الجمار ، وفى الذبح ، وفى الحلق أو التقصير ، على اختلاف المذاهب فى ذلك ، فتدبر ذلك كله وراجِعْه مراجعةً دقيقة حتى تكون على بصيرة فى أمرك .

* * *

صفة التمتع : وقد ذكرنا لك فيما مضى أنا نحبُّ لك أن تحج وتعتمر على طريق التمتع ، وذلك بأن تنوى عند وصولك الميقاتَ المكانىَّ لبلدك العمرةَ وحدها ، ثم إذا انتهيت من أعمالها بعد وصولك مكة تبقى مترفِّهاً إلى يوم التروية — وهو اليوم الثامن من ذى الحجة — وحينئذ تحرمُ بالحج

ونحبُّ هنا أن نبين لك ما تفعله بإيجاز؛ لأنا ذكرنا لك تفصيل الأعمال فيما سبق

وقبل أن نبين لك صفة التمتع ننبهك إلى أن التمتع لا يتم لك إلا إذا كان إتيانك بأعمال العمرة فى الميقات الزمانى للحج ، وقد عرفْتَ فيما سبق أن الميقات الزمانى للحج يبدأ من أول أيام شوال ، فإذا أنت دخلت مكة فى رمضان فأتيت بعمرة فى أثناء رمضَانَ ، ثم انتظرت حتى جاء شوال لم تكن متمتعاً ، ثم نقول :

(١) صفة التمتع أن تحرم فى الميقات المكانى لبلدك — بعد أن يكون ذلك

فى أشهر الحج — بعمرة فقط وتعمل كل ما ذكرنا أنه ينبغى لمن يريد الإحرام أن يعمله من الاغتسال والتجرد والنية والتلبية وما معهنّ .

(٢) فإذا دنوت من مكة فاغتسل ، ثم ادخلها من أعلاها ، ثم ابدأ حين دخولك بالبيت الحرام فطُفْ طواف العمرة سبع مراتٍ ، وأُدع بما ذكرناه لك من أدعية الطواف (انظر ص ١٤٩) .

(٣) ثم اخرج إلى الصفا والمروة فاسْعَ بينهما سَعْىَ العمرة على نحو ما ذكرنا لك فى مبحث السعى بين الصفا والمروة (ص ١٥٢) .

(٤) ثم احلق شعرك كله بالموسى أو قَصِّره كلَّه ، على نحو ما ذكرناه لك فى مبحث الحلق أو التقصير (ص ١٧٨) .

(٥) فإذا أنت فعلت ذلك كله فقد تمت عمرتك ، وحَلّ لك كل شىء ، وساغ لك أن تترفَّهَ بكل ما يصح الترفه به شرعاً .

(٦) وتقيم بمكة بعد ذلك حَلَالاً غيرَ مُحْرِم ، تطوف بالبيت كلما بدا لك ؛ ويسن لك الإكثار من الطواف ، إلى أن يأتى يومُ التروية — وهو ثامن أيام ذى الحجة — وفى هذا اليوم تحرم بالحج من وَسَط الحرم ، ثم تأخذ فى التهيؤ للذهاب إلى عَرَفَاتٍ ، وتفعل فى طريقك إليها وفى عودتك منها كلَّ ما ذكرناه لك فيما مضى .

(٧) وتختلف هذه الطريقة عن طريقة الإفراد — وهى أن تحرم فى الميقات المكانى لبلدك بالحج وحده — فإنه يجب عليك فى يوم النحر أن تذبح شاةً ، وهذه الشاة تسمى دم التمتع ، وقد وجب ذلك بقوله تعالى :(فَمَنْ تَمَتَّعَ

بِالْعُمْرَةِ إِلى الحج فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْىِ) فإن كنت لاتستطيع أن تذبح شاة فصم ثلاثة أيام آخرها يومُ عرفة وسبعةَ أيامٍ إذا فرغت من أعمال الحج ، وقال الشافعية وحدهم : يصوم السبعة إذا رجع إلى وطنه بعد فراغهِ من الأعمال كلها .

(٨) فإذا أنت أفَضْتَ إلى مكة فى يوم النحر بعد أن تكون رميت جمرة العقبة ونحرت الهدى وحلقت أو قصرت فطف بالبيت الحرام طوافَ الزيارة ، وهذا الطواف هو الواجبُ عليك للحج ، لأنك حين طفت بالبيت أول قدومك إنما طفت للعمرة ، وحين كنت تطوف بالبيت بعد انتهاء أيام العمرة وقبل يوم التروية كنت تطوف طواف تحية البيت الحرام

(٩) فإذا انتهيت من طواف الزيارة هذا فاخرج إلى الصفا والمروة فاسْعَ بينهما ، وهذا السعى هو الواجب عليك للحج

(١٠) ثم إذا انتهيت من السعى بين الصفا والمروة فارجع إلى منًى لتبيت فيها ليالى أيام التشريق كما كنت تفعل ذلك لو كنت قد أحرمت بالحج من ميقات بلدك المكانى .

* * *

واعلم أن كل شيء ذكرنا لك أنه ركن فى الحج أو فى العمرة فإنك لو تركته لا يصح حَجُّك ولا عمرتُكَ إلا أن تأتى بهذا الركن الذى تركته إن كان يمكن الإتيان به ، فإن لم تأت بهذا الركن حتى فات وقتُه إن كان له وقتٌ محدُودٌ شرعاً وجب عليك قضاء النُّسُك .

وكل شيء ذكرنا لك أنه واجب فى الحج أو فى العمرة فإنك لو تركته

— ولو ساهياً — صحَّ حَجُّكَ أو عمرتك ، وعليك أن تأتى به إن كان يمكن الإتيان ، فإن لم تأت به وجَبَ عليك دَمٌ ، فإن لم تجد شاةً تذبحها ، أو كنت محتاجاً إلى ثمنها لنفقاتك الضرورية ؛ وجب عليك أن تصوم عشرة أيام ثلاثةً قبل يوم النحر وسبعةً إذا انتهيت من أعمال الحج .

وكل شيء ذكرنا لك أنه سنة فى الحج أو فى العمرة أو فى عمل من أعمالها فإنك لو تركته صح حجُّكَ ، ولا شيء عليك فى تركِهِ ، ولكنك تكون مسيئاً ؛ لمخالفتك سنةَ سيدِ الأولين والآخرين سيدِنا محمدِ بن عبد الله رسولِ الله وحبيبِهِ صلى الله عليه وسلم .

***

ومن السُّنَن عند العَوْدَة إلى الوطن أن يُكبر على كل شَرَفٍ(١) من الأرض ، ويقول : آئِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ . صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ ، ونَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ . كلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ، لَهُ الحُكْمُ وإليه تُرْجَعُونَ .

وإذا دنا من بلده قال ذلك أيضاً ، وأرسل إلى أهله مَنْ يخبرهم ولا يَبْغَتُهم بمجيئه فإن ذلك مَنْهِيٌّ عنه .

وإذا دخل بلده فالسنة أن يبدأ بالمسجد فيصلى فيه ركعتين ، إن لم يكن وقتُ وصوله من الأوقات التى يكره التنفُّلُ فيها .

---

(١) الشرف : المكان العالى ، نعنى إذا طلع فوق شرف كبر

ثم يدخل منزله ، ويصلى فيه ركعتين ، ويحمد الله تعالى ويشكره على ما أولاه من إتمام العبادة والرجوع بالسلامة .

ومن علامات الحج المبرور أن يَعُودَ الحاجُّ وهو خيرٌ مما ذَهَبَ إقبالا على الله تعالى ، وعلى عبادته وعلى الإخلاص له سبحانه فى سِرِّه وعَلاَنيته .

* * *

والله سبحانه وتعالى يتقَبَّلُ مِنَّا أعمالَنَا ، ويتجاوز لنا عن سيئاتنا ، ويرحَمُنا إذا عُدْنَا إليه ؛ إنه — سبحانه ! — أكرم مسئول ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبى الأمىِّ وعلى آله وصحبه .

زيارة مسجد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

يُرْوَى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم! ـ قال «لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مَساجِدَ : مَسْجِدِي هٰذَا ، وَالْمَسْجدُ الْحَرَامُ ، والْمَسْجِدُ الأقصى» .

ويروى عنه ـ صلى الله عليه وسلم! ـ أنه قال «مَنْ وَجَدَ سَعَةً وَلَمْ يَزُرْنِي فَقَدْ جَفَانِي» .

ويُرْوَى عنه ـ صلى الله عليه وسلم! ـ أنه قال : «مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَمَاتِي فكأنما زارَنِي فِي حَيَاتِي» رواه الدَّارقطني .

ويروى عنه ـ صلوات الله وسلامه وعليه! ـ أنه قال «مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي» رواه الدارقطني والبزار .

ويُرْوَى عنه ـ صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليه! ـ أنه قال «مَنْ جَاءنِي زائراً لا تُعمِلُهُ حاجَةٌ إلاَّ زِيارَتِي كَانَ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيامَةِ» رواه الدارقطني أيضا

ويروى أنه ـ صلى الله عليه وسلم! ـ قال «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي تَعْدِلُ أَلْفَ صَلاَةٍ فِي غَيْرِهِ»

وينبغي لمن قَصَدَ زيارة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم! ـ أن يكثر من الصلاة عليه ؛ فقد جاء في الحديث أن صَلاَة مَنْ صلى عليه تَبْلُغه ، ثم إذا عايَنَ الزائر حيطانَ المدينة صَلى عليه ـ صلى الله عليه وسلم! ـ ثم قال : اللهمَّ إنَّ هٰذَا

حرَم نبيك فاجعله وقايةً لى من النار ، وأماناً من العذاب وسُوءِ الحساب ، ويغتسل قبل دخول المدينة إن أمكنه ، فإن لم يمكنه فَلْيَتَوَضَّأْ أو فليغتسل بعده ، وليتطيب وليلبس خير لباسه ، ثم يدخل المدينة متواضعاً عليه السكينة والوقَارُ ، ثم يقول : بسم الله ، وعلى ملة رسول الله ، رَبِّ أدخلنى مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا . اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وَعَلَى آلِ محمدٍ ، واغفِر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك ، وَارْزُقْنِي من زيارة رسولك ـ صلى الله عليه وسلم ! ـ مارَزَقْتَ أولياءكَ وأَهلَ طاعتك ، واغفِرْ لى وارحَمْنى ياخَيْرَ مَسْؤُولٍ .

ثم يدخل مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتَّجِهُ إلى منبره صلى الله عليه وسلم ويَقِف بحيث يكون عمودُ المنبر حذاءَ منكبه الأيمن ، ثم يصلى ركعتين ، ثم يسجد شكراً لله تعالى على ما وفقه ، وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « بَيْنَ قبرى ومنبرى رَوْضَة من رياض الجنة(١) » فإذا أتم صلاة الركعتين وسَجَدَ شكراً لله دَعَا بما أحبَّ

فإذا انتهى من ذلك ذهب إلى قبره صلى الله عليه وسلم ، ووقف عند رأسه مستقبلَ القبلة ، ولا يضع يده على جدار القبر ولا يَدْنُو منه دنوًّا شديداً فإن ذلك أهْيَبُ وأعظم للحرمة ، ثم يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا نبى الله ، السلام عليك يا صَفِيَّ الله ، السلام عليك يا حبيب الله ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية « مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » وهما سواء ؛ لأن قبره فى حجرة عائشة أم المؤمنين ، وهى بيته صلى الله عليه وسلم

السلام عليك ياشفيع الأمة ، السلامُ عليك ياسيد المرسلين، السلام عليك ياخاتم النبيين ، السلام عليك وعلى آل بيتك الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، جزاك الله عنا أفضل ماجزَى نبياعن قومه ، أشهدأنك قد بَلَّغْتَ الرسالة ، وأدَّيْتَ الأمانة ، ونَصَحْتَ الأمة ، وأوضحت الحجَّةَ ، وجاهدْتَ فى سبيل الله ، وقاتلت على دين الله حتى أتاك اليقين، فصَلَّى الله عليك صلاةً دائمة إلى يوم الدين ، يارسول الله ، نحنُ وَفْدُكَ وزُوَّارُ قبرِكَ ، جئناكَ من بلاد شاسعة ونَوَاحٍ بعيدة ، قاصدين قضاء حقك، والنظر إلى مآثرِكَ ،والتيامُنَ بزيارتك ، والاستشفاعَ بك إلى ربنا ، فإن الخطَايَا قدقَصَمَتْ ظهورنا، والأوزار قد أثقلت كواهلنا ، وأنت الشافع المشفَّعُ الموعود بالشفاعة والمَقام المحمود ،وقدقال الله تعالى :(وَلَوْأَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ واستغفرلهمُ الرسولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً) وقد جئناكَ ظالمين لأنفسنا ، مستغفرين لذنوبنا ، فاشفع لنا إلى ربك ، واسأله أن يُمِيتَنَا على سنتك ، وأن يحشرنا فى زمرتك وأن يوردنا حَوْضَكَ، وأن يسقينا بكأسك غيرخزَايا ولانادمِينَ، الشفاعَةَ الشفاعَةَ الشفاعَةَ يا رسول الله ، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان

ثم يقف عند وجهه صلى الله عليه وسلم مستدبرَ القبله ويصلى عليه ماشاء

ولْيُبَلِّغ الزائر سلامَ مَنْ أوصاه بتبليغ سلامه ، فيقول : السلامُ عليك يارسول الله من فلان بن فلان ، أو يقول : فلانُ بنُ فلانٍ يسلم عليك يارسول الله ؛ ويُرْوى أن عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ كان يُوصِى بذلك ، وكان يرسل به البريدَ من الشام إلى المدينة .

ويتحوّل بعد ذلك كله قدر ذراع حتى يحاذىَ رأسَ خليفته أبى بكر الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ ويقول : السلام عليك ياخليفة رسول الله ، السلام عليك يا صاحبَ رسول الله فى الغار ، السلام عليك يا رفيقه فى الأسفار ، السلام عليك يا أمينهُ على الأسرار ، جَزَاكَ الله أفضلَ ما جازى إماماً عن أمة نبيه ، لقد خَلَفْتَه بأحسن خلف ، وسلكت طريقه ومنهاجه خير مَسْلك ، وقاتلت أهل الردة والبِدَعِ ، ومَهَدْتَ الإسلام ، ووصلْت الأرحام ، ولم تزل قائلا الحقَّ ناصراً لأهله حتى أتاكَ اليقين ، السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ، اللهم أمِتْنَا على حبه ، ولا تخيب سعينا فى زيارته برحمتك يا أرحم الراحمين .

ثم يتحول حتى يحاذى قبر عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ! ويقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، السلام عليك يا مظهر الإسلام السلام عليك يا مكسِّرَ الأصنام ، جزاكَ الله عنا أفضل الجزاء ، ورضي ا عمن استخلفك ؛ فلقــد نصرت الإسلام والمسلمين ، وكَفَلْتَ الأيتـام ووصلت الأرحام ، وكنت للمسلمين إماماً مَرْضِيًّا ، وهادياً مَهْدِيًّا ، جمعت شَمْلَهم ، وأغنيت فقيرهم ، وجَبَرْتَ كسرهم ، فالسلامُ عليك ورحمة الله وبركا

ثم يرجع قدر نصف ذراع ويقول : السلام عليكما ياضَجِيعَىْ رسول ا ورفيقيه ووزيريه ومُشِيريه ، والمعاونين له على القيام فى الدين ، والقائمين بعد بمصالح المسلمين ، جزاكما الله أحسن الجزاء ! .

ثم يقف عند رأس النبي صلى الله عليه وسلم كما وقف أول مرة ويقول : اللهم إنك قلت وقولك الحق (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما) وقد جئناك سامعين قولك ، طائعين أمرك ، مستشفعين بنبيك إليك ، ربنا اغفر لنا ولآبائنا ولأمهاتنا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمدُ لله رب العالمين . ويدعو الله تعالى بما يحضره من الدعاء .

ثم يأتى الروضة فيصلى فيها ما تيسر له ، ويدعو الله تعالى ، ويكثر من التسبيح والثناء على الله تعالى بما هو أهله ، ومن الاستغفار .

ويجتهد أن يحيي ليالىَ مدة مُقامه بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بقراءة القرآن ، والدعاء عند المنبر والقبر وبينهما سراً وجهراً .

ويستحب أن يزور شهداء أحد ، ويقول عند قبورهم : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، سلام عليكم دارَ قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون .

ويستحب أن يأتي مسجد قباء ، وليَكُنْ ذهابُه إليه فى يوم السبت ، فإنه قد صَحَّ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتيه فى كل سبْتٍ ، وهذا المسجد أولُ مسجدٍ بُنى فى الإسلام ، وكان أول مَنْ وضَعَ فى بنائه حَجَراً

هو سيدُ الأولين والآخرين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خليلُه الصِّدِّيقُ أبو بكر ، ثم الفاروق عمر بن الخطاب ، ثم ذو النورين عثمان بن عفان — رضى الله تعالى عنهم أجمعين ! — وينبغى أن ينوى الإنسانُ زيارةَ هذا المسجد والصلاةَ فيه ؛ فإنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الصلاة فى هذا المسجد تَعْدِلُ عُمْرَةً . فإذا جاءه دعا الله تعالى قائلا : ياصريخ المستصرخين ، يا غياث المستغيثين ، يا مفرج كرب المكروبين ، يا مجيب دعوة المضطرين ، صَلِّ على محمدٍ وآلهِ ، واكشف كربى وحزنى كما كشفت عن رسولك حزنه وكربه فى هذا المقام ، يا حنَّان يا منَّان ، يا كثير المعروف ، يا دائم الإحسان ، يا أرحم الراحمين . اللهمَّ آمين .

***

قال أسيرُ المَسَاوى والأوْزَار ، أبو رجاء غفر الله تعالى بمَنّه وفضله له ولوالديه ولأصحاب الحقوق عليه : قد تم — بتوفيق الله ومعونته — ما مَنَّ به الله من كتابة شعائر الحج والعمرة وزيارة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، والله — جلت قدرته ! — ينفع به مؤلفه وقارئه ، وهو — سبحانه ! — ولىُّ الإجابة .

السلام عليك ياشفيع الأمة ، السلامُ عليك ياسيد المرسلين ، السلام عليك ياخاتم النبيين ، السلام عليك وعلى آل بيتك الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، جزاك الله عنا أفضل ماجَزَى نبياعن قومه ، أشهد أنك قد بَلَّغْتَ الرسالة ، وأدَّيْتَ الأمانة ، ونَصَحْتَ الأمة ، وأوضحت الحجَّةَ ، وجاهدْت في سبيل الله ، وقاتلت على دين الله حتى أتاك اليقين ، فصَلَّى الله عليك صلاةً دائمة إلى يوم الدين ، يارسول الله ، نحنُ وَفْدُك وزُوَّارُ قبرك ، جئناك من بلاد شاسعة ونَوَاحٍ بعيدة ، قاصدين قضاء حقك ، والنظر إلى مآثرك ، والتيامُنَ بزيارتك ، والاستشفاعَ بك إلى ربنا ، فإن الخَطَايَا قد قَصَمَتْ ظهورنا ، والأوزار قد أثقلت كواهلنا ، وأنت الشافع المشَفَّعُ الموعود بالشفاعة والمَقام المحمود ، وقد قال الله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ واستغفر لهمُ الرسولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً) وقد جئناك ظالمين لأنفسنا ، مستغفرين لذنوبنا ، فاشفع لنا إلى ربك ، واسأله أن يُميتَنَا على سنتك ، وأن يحشرنا في زمرتك وأن يوردنا حَوْضَكَ ، وأن يسقينا بكأسك غير خزَايا ولا نادمينَ ، الشفاعَةَ الشفاعَةَ الشفاعَةَ يا رسول الله ، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان

ثم يقف عند وجهه صلى الله عليه وسلم مستدبِرَ القبلة ويصلى عليه ماشاء

ولْيُبَلِّغ الزائر سلامَ مَنْ أوصاه بتبليغ سلامه ، فيقول : السلامُ عليك يارسول الله من فلان بن فلان ، أو يقول : فلانُ بنُ فلانٍ يسلم عليك يارسول الله ؛ ويُرْوى أن عمر بن عبد العزيز ــ رضى الله تعالى عنه ! ــ كان يُوصِى بذلك ، وكان يرسل به البريدَ من الشام إلى المدينة .

ويتحوّل بعد ذلك كله قدر ذراع حتى يحاذىَ رأسَ خليفته أبى بكر الصديق — رضى الله تعالى عنه ! — ويقول : السلام عليك ياخليفة رسول الله ، السلام عليك يا صاحبَ رسول الله فى الغار ، السلام عليك يا رفيقه فى الأسفار ، السلام عليك يا أمينهُ على الأسرار ، جَزَاكَ الله أفضلَ ما جازى إماماً عن أمة نبيه ، لقد خَلَفْتَه بأحسن خلف ، وسلكت طريقه ومنهاجه خير مَسْلك ، وقاتلت أهل الردة والبِدَعِ ، ومَهّدْتَ الإسلام ، ووصلْتَ الأرحام ، ولم تزل قائلا الحقّ ناصراً لأهله حتى أتاك اليقين ، السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ، اللهم أمِتْنَا على حبه ، ولا تخيب سعينا فى زيارته برحمتك يا أرحم الراحمين .

ثم يتحول حتى يحاذى قبر عمر بن الخطاب — رضى الله تعالى عنه ! — ويقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، السلام عليك يا مظهر الإسلام ، السلام عليك يا مكسِّرَ الأصنام ، جزاك الله عنا أفضل الجزاء ، ورضى الله عمن استخلفك ؛ فلقد نصرت الإسلام والمسلمين ، وكَفَلْتَ الأيتام ، ووصلت الأرحام ، وكنت للمسلمين إماماً مَرْضِيًّا ، وهادياً مَهْدِيًّا ، جمعت شَمْلَهم ، وأغنيت فقيرهم ، وجَبَرْتَ كسرهم ، فالسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته

ثم يرجع قدر نصف ذراع ويقول : السلام عليكما ياضَجيعَىْ رسول الله ورفيقيه ووزيريه ومُشيريه ، والمعاونين له على القيام فى الدين ، والقائمِين بعده بمصالح المسلمين ، جزاكما الله أحسن الجزاء ! .